مسيح باب زويلة

مسيح باب زويلة

قصص

مصطفى زكي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٣٠٥ /٢٠١٨

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 526 - 1

مسيح باب زويلة

قصص

مصطفى زكي

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

زكي، مصطفى

مسيح باب زويلة: قصص/ مصطفى زكي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٥٢٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٣٣٠٥ / ٢٠١٨

إلى شيري وزياد وزينة.

قالت لي وهي تهم بالانصراف: «سأسير في أحلامك وستكون شديدة الزرقة».

إيريك فوتورينو

كانت الجملة التي تحرك لدي أقوى الانفعالات، لأنها تقدم الوعد بكشف شيءٍ سبق أن حصل خارج التسلسل الواضح للأحداث، هي: «أثناء ذلك، في قسم آخر من الغابة..». كانت تلك الجملة تتضمن وعدًا بشيءٍ لا نهائي تقريبًا: إمكانية معرفة ما حصل في الفرع الثاني للطريق، ذلك الذي لم نسلكه عند تقاطع الطرق، ذلك الذي تصعب رؤيته قليلًا، الدرب السري الغامض.

ألبيرتو مانغويل

المحتويات

- صورة جديـدة 11
- أين يذهب الأزرق؟ 17
- وردتان لن تأكلهما العصافير 23
- عتبة رخاميَّة باردة 29
- فانلة زرقاء مخططة 37
- رقصة أخيرة 43
- هوتيل كاليفورنيا "ديجافو" 51
- مراسم حرق القميص 61
- أسانسير يأخذك للسمـاء 67
- كبسولة الأحلام المخبأة 75
- الغداء الأخير 83
- طقوس التحوُّل إلى طائر لا اسم له 91
- ما جـرى في ليلـة مقمـرة... 101
- مسيح باب زويلة 109

صورة جديدة

بعكس المكان القديـم في كل تفاصيله، كان الرجل يبدو متأنقًا، لافتًا للنظـر ببذلته الرمادية، وقميصه الأبيض الزاهـي، وربطة العنق الحمراء الداكنة. لاحظت أنه يضـع منديلًا في جيب الجاكيت العلوي بنفس لون الكرافت. شـعره الرمـادي لامعٌ ومصففٌ بعناية شـديدة. أعدتُ النظر إلى المنديـل الأنيق في جيبه. ربما لم أرَ أحدًا يضع منديلًا سـوى في الأفلام والتليفزيون والصور فقط. مبتسمٌ بوجهه الطويل المحتفظ بوسامة لم تزل. له عين رمادية كشعره بنفس لون البذلة تقريبًا.

تفوح من المكان رائحة عتيقة، مميزة. كروائح المكتبات القديمة. كان المكتب الجالس عليه ممتلئًا بعشرات من آلات التصوير، مختلفة الأحجام والأشكال، بعضها قديمٌ جدًا. مرصوصة بعناية على كل شبر من المكتب.

الحائط مكتظٌّ ببراويز الصور التي التقطها. ربما غبتُ دقائق وأنا أتأمّلُها. وأتأمَّل ابتسامات الناس المشرقة بدرجة غريبة. ثمة فرحة تتقافز من أعينهم جميعًا. تنبهتُ لنظرة الرجل التي لم تفارقني، وابتسامته الخفيفة وهو ينتظر أن أنتهي من تأملي لما حولي. «آسف.. لكن الصور جميلة فعلًا».

«شكرًا». قالها مقتضبةً بصوتٍ أجش عميق.

لم أنطق. ظللت أتأمل صوته الذي ملأ الهواء حولي.

«هل تخبرني لأي شيءٍ تريد الصورة؟».

«لا أدري»؛ بإحراج وابتسامة ساذجة مني. ظلَّ صامتًا منتظرًا أن أقوم بالتفسير أكثر.

«إممم.. معتادٌ على التصوير كل فترة.. للطوارئ. لم أجد عندي صورًا جديدة لي ففكرتُ في التصوير».

ظل يتأملني ثانية دون كلام. كأنما يقوم بقياس تفاصيل وجهي. مدَّ يده بين الكاميرات الكثيرة أمامه، وتناول واحدةً بعدسةٍ كبيرةٍ ممتدة أمامها، فحصها، ووضعها أمامه بحرص على طرف المكتب.

«متى سأستلم الصور؟».

«على الفور». ثم أكمل بصوته المشروخ: «وهذه الصور هدية مني، ملامحك غنية جدًّا». أعجبني ما قال فابتسمتُ. حتى أنني نسيتُ أن أُصرَّ على الدفع.

ظلَّتْ الابتسامة تتسع على شفتي وهو يهبُّ من مكانه متناولًا الكاميرا من أمامه بقوَّة. كان طويلًا، وهبَّتْ لفحة من عطره الثقيل مع وقوفه.

مهيبًا، له كاريزما واضحة وكاسحة. سار للداخل، عبر ستارة داكنة تحجب ضوء الخارج. مشيرًا لي أن أتبعه. مشيتُ خلفه كالمسحور. المكان بالداخل شبه مظلم. عارٍ تمامًا من أيَّ شيء؛ ستارة بيضاء وحيدة فقط على الحائط الأمامي المتآكل من الرطوبة، وكرسي خشبي متوسط الطول في منتصف الحجرة تقريبًا. أشار لي لأجلس ففعلتُ. ضغط على زرٍ جانبه فانعكست الإضاءة على الستارة خلفي لتصنع ظلالًا متداخلة. كان ممسكًا بالكاميرا الكبيرة بيد، وبالثانية كان يشير لي لأعدِّلَ وضع جلستي. هادئًا، يضيق عينيه باهتمام وهو يواصل الإشارت بأصابعه الرفيعة الطويلة.

«هل تعلم أنني لا أملك أيَّ صورٍ لي؟» قالها فجأةً بدون مقدمات.

لم أجد ما أقوله فواصلت صمتي وتأملي له. «لم أفكر في التقاط أي صورة لي من قبل. ربما لأنني لا أثق في عدسات الآخرين». هززت رأسي، واسترخيت في جلستي قليلًا. تدلَّى كتفاي، وأرحتُ رقبتي التي كانت مشدودة منذ ثوانٍ. «قمت بتصوير كل من أحب، التقطت لهم لحظات لا تنسى». حاولتُ أن أتكلم لكني من جديد لم أجد ما أقول. فهمهمتُ محرجًا من صمتي.

«لتخبرني عن صورك؟».

تفاجئتُ بالسؤال. فابتسمت وقلت له بصوتٍ حاولت أن أجعله ودودًا: «كما أخبرتك. أحرص على التقاط الصور لي كل فترة؛ لتجديد الكارنيهات المختلفة. لا أحب وضع الصور القديمة في الكارنيهات الجديدة». تتسع عيناه قليلا، أراها بصعوبة في المكان خافت الإضاءة، وهو يبتسم: «عظيم».

«كنتُ معتادًا على التصوير عند صديق لي. لكنه سافر وأغلق الأستوديو الخاص به». كأنني أبرر لماذا لم آتِ له من قبل. يواصل إصغاءه وتأمله، أرخى ذراعه التي تحمل الكاميرا جانبه، وتقدم للأمام قليلًا؛ وجدتُ نفسي أحكي: «كانت أولى صور ابني هناك منذ سنين. كان صغيرًا لا يستطيع الجلوس، وضعنا المساند حوله وخلفه كي لا يقع. واستطاع صديقي إخفاءها في الصورة فلم تظهر».

«هل تحب تلك الصورة؟».

«نعم. جدًا جدًا. أحتفظ بها في محفظتي». مددتُ يدي لجيبي الخلفي لأخرج المحفظة. فتحتها وأخرجت من بين صورٍ عديدة تلك الصورة. ظننتُ أنَّه سيقترب ليراها، لكنه ظلَّ واقفًا مكانه لم يتحرك. ظللتُ ممسكًا بها في يدي مُحرجًا وأنا أكمل: «في ذلك اليوم أيضًا تصورت مع زوجتي، ونحن نمسك بطفلي بيننا، نحتضنه ونحن نضحك. معي تلك الصورة أيضًا».

«لتخرجها». فتحتُ المحفظة وأخرجتُها سريعًا؛ لكنه لم يتقدَّم أيضًا ليراها. فكرتُ بأنَّه لا يريد أن يقاطعني. فواصلت: «العجيب أننا تصورنا معًا كثيرًا بعد هذا. كثيرًا جدًّا، إلا أنني تقريبًا لا أتذكر سوى ذلك اليوم. معي العديد من الصور الأخرى له ولنا. إلا أن تلك الصور هي المفضلة لي»، وأشرت له بها.

«هل تعلم. سأخبرك بشيءٍ غريب». قالها بصوته المشروخ القويّ وهو يمدُّ يده ليتناول علبة سجائر من جيبه ويشعل واحدة. انعكس اللهب

على وجهه ثوان، سحب نفسًا قويًا، وهو يواصل: «هل رأيتُ كل تلك الصور الموجودة بالخارج. تلك التي كنت تشاهدها، والموضوعة بطول الحوائط كلها؟».

«نعم. نعم. ما بها؟». «هل تعلم أن أصحابها لم يأتِ أيٌّ منهم لاستلامها بعد! بالكامل. كل الصور التي في الإطارات على الحائط». شعرتُ بتوترٍ مفاجئٍ، حاولتُ الاعتدال في جلستي، إلا أن المقعد كان صغيرًا، ومتعبًا جدًا.

يواصل هو نفخ مزيدٍ من الدخان الكثيف وسط الإضاءة الخافتة الساقطة على الحائط خلفي. ويقول: «انتظرتُهم كثيرًا؛ إلا أنهم لم يأتوا. قمت بوضعها في براويز، وعلقتها على الحائط أمامي وحولي؛ ربما لأتذكرهم إن جاء أحدهم ثانية». يصمت لثوانٍ ويكمل: «وإن كنتُ لا أعتقد أن أحدهم سيحضر».

حاولت أن أتحرك من جديد إلا أن الجلسة المنخفضة بسبب المقعد أثقلت ظهري. ففردته دون أن أهب. كنت متعجبًا مما يقول ربما لم أصدقه تمامًا إلا أنني لم أعارضه فقط قلت بتعجب: «غريبٌ جدًا!!».

«الأغرب لم يأتِ بعد». قالها وهو يرمي بسيجارته على بلاط الأرض العارية تحته، ويقوم بإشعال واحدة أخرى. تنبهتُ واقتربتُ بجلستي على طرف المقعد غير المريح؛ ليكمل: «ما إن قمتُ بتعليق آخر صورة على آخر جزءٍ خالٍ من الحائط عندي حتى توقف الناس عن المجيء للتصوير؛ ربما

كانت صدفة؛ لكني لا أؤمن بوجود صدف في الحياة أبدًا. كل شيءٍ مُعدٌّ، ومرتب بدقة.. أليس كذلك؟».

أجبتُ بحيرة: «ربما.. لا أدري». كان قد عاد للخلف ثانية وهو يتكلم، أمسك الكاميرا القديمة بكفيه الاثنتين أمام وجهه، وقام بضبط الكاميرا الأمامية. يعود للخلف خطوة أخرى، ليغرق في الظلام بالخلف. لا أرى سوى انعكاس عدسة الكاميرا فقط، وشعلة السيجارة المتوهجة.

بصوته الأجش، العميق: «هل أنت جاهز؟». أردت إخباره بأن وضع جلستي قد اختلف، وأنني قد تحركت، ولم يقم هو بضبطي ثانية. حاولتُ الاعتدال وشدَّ ظهري، دون أن يعلق هو بأي شيء. ظلَّ جامدًا بالكاميرا أمام وجهه دون أن يتحرك. كانت أنفاسي تتلاحق، والعرق يغمرني تمامًا، تنبهتُ لهذا الآن، فكرت بأن أطلب منه الانتظار ومساعدتي. إلا أنني صمتّ. كرر هو بصوته الرتيب: «هل أنت جاهز؟». كنت لا أزال ممسكًا في يدي بالصورتين، فقبضت عليهما كفيَّ بقوة، وأنا أقوم بفرد ظهري عاليًا، وأميل بوجهي لأواجه العدسة. «نعم». ظل هو متجمدًا في وقفته طويلًا، شعرت بأن الثواني لا تمر. قبل أن يغمرني الضوء الأبيض البارد للفلاش القديم.

أين يذهب الأزرق؟

صافرات القطارات تدوي من بعيد. عالية مزعجة كخلفية مُكملة تليق باليـوم. الزحام والأصوات المتداخلـة، والحقائب المنتشرة بطول الرؤية؛ بالكاد استطاع الحصول على منضدة في بوفيه المحطة المكتظ. منضدة صغيرة بجانب النافذة نصف المفتوحة المغبشة. اقترب بالكرسي من النافذة ليتمكن من رؤية المارين، والداخلين للبوفيه.

الجو حار، والمراوح المعلقة بالسـقف لا تحـرك حتى الهواء. ضجيج، وصياح، وبكاء هستيري حوله يأكل ما تبقى من روحه. يشعر بضغط دمه يرتفع. صداع يقبض على منتصف رأسـه وينـز بلزوجة على عينيه. يضع حقيبته الوحيدة بين قدميه جيدًا. يشعل سيجارة، وهو يواصل التطلع عبر النافذة. يفك أول أزرار قميصه، ويحاول التقاط أنفاسه بهدوء. يتطلع للساعة

الكبيرة المعلقة على الجدار جانبه. الوقت يمضي بسرعة جنونية، يحاول ألا يتوتر؛ لكن سرعة هز قدمه تزداد، دون أن يتمكن من إيقافها.

لمحها تأتي من بعيد، تهرول، يبدو عليها الفزع والتوتر، تحمل حقيبة على كتفها، وأخرى كبيرة تحاول أن تمر بها بين الزحام، هبّ من مكانه وأشار لها عبر الزجاج الداكن، تراه فتقترب من النافذة ليتناول منها حقائبها، وتتجه هي لباب البوفيه لتدخل. كانت شاحبة، شعرها متناثر حول رأسها، تحاول أن تعدله بكفيها المهتزتين.

حاولت الابتسام له لكنها لم تتمكن، ظلت صامتة بعدها وهي تُثبت نظرها في طرف المنضدة الصغيرة أمامها. تنظم أنفاسها كمحاولة لأن تهدأ. تناولتْ سيجارة من علبته وأشعلتها بيد مهتزة، تسحب نفسًا عميقًا وهي تحاول أن تهرب بعينيها من عينيه، شعر بثقل يزداد فوق صدره، مدّ يده ليربت على كفها فانتفضت بشدة. «آسف لم أقصد». تنظر له بعين دامعة. وهي تلتهم السيجارة بشراهة.

«أريني ماذا أعطوكِ»؛ رفعتْ كفَّها بتذكرةٍ صغيرةٍ مطويَّة. فتحتها، ليظهر لونها البرتقالي. وعلى الرغم من كل ما يشعر به إلا أنه ابتسم لها قائلًا «جيد. هذا جيد جدًّا»، شعر بفرحة تسري داخله، يبتسم لها بشحوب خمنتْ هي معناه.

«وأنتَ؟» بصوتها المرتعش الخائف تسأله. ترددتْ قبل أن تسأل كأنها لا تريد أن تعرف حقًّا. أخرج التذكرة من جيب قميصه العلوي. ظلَّ قابضًا عليها قليلًا قبل أن يفتحها أمامه، كانت زرقاء داكنة، كانتْ تتوقع

ما ستراه؛ وإن ظلَّتْ تأمل. شعرتْ بروحها تُسحب منها، شهقتْ وهي ترجع للوراء تاركةً دموعها لتنهمر فجأة. كان السواد ينتشر في مجال رؤيته، سحابةٌ داكنة تتصاعد من الأطراف لتأكل محيط رؤيته. لم يجد ما يقوله، ظلَّ ينظر للون أمامه والرؤية تُضبب أمام عينيه، لمح بالكاد الساعة المعلقة. ومدَّ يده الميتة ليمسك بكفِّها المرتعش.

«لا وقت. أرجوكِ». تحاول التوقف عن البكاء، وهي تشعل سيجارة جديدة. «البرتقالي جيد، جيد جدًّا. ستتحركين لمنطقة آمنة، لا ضرر، لا تخافي». كان صوته يخرج بصعوبة. جفاف شديد يغلِّف لسانه، ودقات قلبه تتسارع بشدَّة. الحروف تخرج منها متناثرةً، متآكلة. لم يفهم منها شيئًا، اقترب منها أكثر، وهو يقبض على كفِّها بين أصابعه بشدَّة: «لا تخافي، ولكن لا تعطيهم شيئًا، لا تسمحي لهم بأخذ أيِّ شيءٍ منك قبل الوصول».

«وأنت.. أنت ماذا ستفعل؟». «لا تقلقي. لا أحد يعلم أين يذهب الأزرق، ربما كان مكانًا جيدًا»، يحاول الابتسام وهو يتكلم إلا أن وجهه المتيبس فشل في هذا. كان يريد إشعال سيجارة أخرى؛ إلا أنه لم يتمكن. ظلَّ ممسكًا كفَّها، محاولًا السيطرة على ارتعاش جسده المجنون. «سأبقى معك»؛ بالكاد سمعها، وفهم ما تقول. هو يعلم أن هذا مستحيل، وهي تعلم، فهز رأسه نفيًا بشدَّة: «لا. ستركبين قطارك، لن يسمحوا لأحد بالبقاء. على الأقل أعلم لأين تتجهين، وهذا جيد». كانت دموعها تغرق وجهها وتتساقط عبر ذقنها الصغير. وجهها يشحب وينطفئ، صمتتْ كلُّ الأصوات في أذنيه، لم يعد يسمع أيَّ ضجيج، أو صياح؛ فقط صوت

تنفسها المتقطع، وحروفها المهشَّمة التي تتناثر منها. أراد أن يضمَّها بقَّوة. أن يحتضنهـا ويطمئنها؛ لكنَّه لم يتمكن من الحركـة، دوامة من ظلام تلفه وتبتلعـه داخلها. دوار، ورغبـة في القيء، ورغبة مميتـة في البكاء. إلا أنَّ دموعه ظلَّت معلَّقة في عينيه.

الصوت الآلي الرتيب يأتي عبر ميكروفون المحطة مزعجًا، مقبضًا: «على أصحـاب التذاكر البرتقالية فقط التوجـه لركوب القطار على رصيف 3. سيتحرك القطار في تمام العاشرة. على أصحاب التذاكر البرتقالية فقط التوجه لركوب القطار على رصيف 3. سيتحرك القطار في تمام العاشرة».

نظر للساعة أعلى الجدار فوجدها العاشرة إلا عشر دقائق. نفد الوقت منهما، وسترحل. ظلَّ ينظر لها دون أن يجد ما يُقال. كان الضجيج حولهما يتعالى ضجيجًـا مختلطًا بصياح وبكاء وعويل. هسـتيريا جنونية أصابت الجميع. أمسك يدَها وهمس: «لابدَّ أن تتحركي». لم تسمعه، لكنَّها فهمتْ ما يقول.

انتفضتْ مكانها فجأة والتفتت لتتشـبث بمن يجلس خلفها: «إلى أين يذهب الأزرق؟ أرجوك». يزيحها الرجل خلفها بعنف وهو ينظر للأمام دون أن يرد. يتعالى صوتها بشـدَّة: «ليخبرني أحد إلى أين يذهب الأزرق. أرجوكم». كان ينظر لها ولمحاولاتها المجنونة الأخيرة دون أن يفعل شيئًا. كأنما يشاهد مشهدًا من فيلم. صوتها يخرج متآكلًا عبر نشيجها المتصاعد.

ترى أحد الحراس الذين يملأون المكان يمرُّ أمام النافذة بالخارج. تهبُّ فجأة لتقفز عبرها، قبل أن يتمكن من منعها. يسـمعها تهتف به: «إلى أين

يذهب الأزرق؟ لتخبرني أرجوك». يمسكها من ذراعها بقسوة ويصيح: «لا شأن لكِ بهذا، الآن موعد اللون البرتقالي». تصرخ فيه بجنون: «لابدَّ أنَّك تعلم. أرجوك. لتخبرني أرجوك». يقفز هو عبر النافذة ليمسك بها من كتفيها ويسحبها بعيدًا عن الحارس الذي كان يتأهب لضربها بكعب سلاحه، يشدُّها بعيدًا ليلصق ظهرها بالحائط؛ وهو يلهث. كانت ترتجف، شحب وجهها تمامًا، وتناثر شعرها على رأسها وأمام وجهها.

يرى أحد الحراس بداخل البوفيه يسحب حقائبهم بعيدًا. لسانه يرفض الحركة والكلام. ينظر لعينيها الذابلة. والعالم من حوله يزداد ابتعادًا. يقترب منها ليهمس في أذنيها بخفوت دون أن تسمعه وهو يحتضنها داخله.

«النداء الأخير لأصحاب التذاكر البرتقالية. سيتحرك القطار بعد دقيقتين.. النداء الأخير لأصحاب التذاكر البرتقالية. سيتحرك القطار بعد دقيقتين».

يمسك بيدها الصغيرة ويسحبها خلفه دون مقاومة، لا يشعر بها كأنها تحولت لطيف. يتجه للقطار المتوقف على الرصيف 3. ينظر لكفِّها الآخر ليرى التذكرة المكرمشة بين أصابعها. يتخطيان الزحام والضجيج، ليصلا لآخر عربة بالقطار. الجنود يسدُّون آخر الرصيف، والصياح المجنون حوله يتعالى. يتوقف معها أمام الباب الأخير المزدحم. يبتسم أخيرًا شبه ابتسامة وهو يحتضنها ثانية. يهمس لها ببطء في أذنها مرَّةً أخرى -قبل أن يدفعَها عبر باب القطار المتحرك- بما قاله لها منذ قليل: «اللون الأزرق يذهب للسماء».

وردتان لن تأكلهما العصافير

أخبرتني العرافة بأني سأسقط بعد أن تسقط وردتاي السبع.

لم أفهم، ظللت أتطلع في وجهها المثقل بتجاعيد، وكحل كثيف حول عينيها لا يزول. لم تتكلم ثانية، أعادت إليّ كفي بعد أن نسيته معها، تعيد شعرها الأشيب للوراء وهي تعتدل في جلستها.

كان الجو باردًا، لم تتوقف الأمطار منذ الأمس. الرعد يدوِّي من بعيد لينفجر بعدها فوق رؤوسنا. أشعر بالبرد، ورجفة مجهولة تتحرك بطول ظهري.

«ما معني سقوطي؟» تنظر إليَّ عبر إطار الكحل السميك في وجهها، ولا ترد.

«وما معنى ورداتي السبع؟». مزيدًا من الصمت ذي الطنين المزعج؛ فقط تنظر لي طويلًا بعين لا ترمش. تتأملني كلي وتجاعيد وجهها تزداد ضراوةً وتوحُّشًا. أشاحتْ بوجهها فجأةً، وهي تشير لي بالانصراف. «عمومًا، أنا لا أصدق ما تقولون». هكذا تمتمتُ بخفوت وضيق وأنا أهبُّ من مكاني أمامها. أشـمُّ رائحـة بخور بعيد، ابتعدتُ عنها بخطـوات قليلة مترددة، تطلعتُ إليها ثانية؛ لكنَّها كانتْ تنظر لأسفل، ولم تنظر لي مرة أخرى.

– هاه. ماذا قالتْ لك؟

نسـيتُ أن زوجتي جاءتْ معي، تنتظرني بعيدًا عن مرمى السـمع كما طلَبتْ منها العرافة. نظرتُ لها وحاولتُ الابتسام لكني فشلت. ظلَّتْ نظرتي جامدة دون أيِّ تعبير على وجهـي. كان هذا اقتراحها. بالذهاب للعرافة التي سـمعت عنها من إحدى صديقاتهـا. اقترحَتْ أن نذهب لتخبرنا بما لا نعرف.

– هذا دوري إذن.

قالتها وهي تسـحبني معها من كفِّي، واتجهتْ للعرافة التي لم تنظر لي كأني لستُ موجودًا. ركزتْ نظرتَها وكلامها معها.

– لن أقرأ كفَّكِ اليوم، لقد انتهيتُ. ولكن..

سحبتْها من كفها المفرود ناحيتها، وهمستْ في أذنها بفحيح مسموع:

– لتظلي معه؛ فقط هذا آخر ما سأستطيع أن أقوله.

لم تكن تفهم شيئًا، فصمتت وهي ترجع للوراء بحيرة، وتقوم بسحبي ثانية من يدي وهي تبتعد كأني ابنها، وتقول:

– دعنا نلحق الطريق قبل الحظر.

***

أحصيتُ عدد الورود في شرفتي. كانت سبع وردات. ظللتُ أتأملها قليلًا. محاولًا إقناع نفسي بأنها صدفة. مجرد صدفة ليس إلا. متناثرات في أرجاء الشرفة بين الزرع الكثير المنتشر. تقف زوجتي جانبي تتأمل معي، لم تفهم هي أيضًا معنى السقوط. تربتُ على كتفي بحب وهي تهمس لي ألا أقلق.

- سنحافظ على الزهور بقدر الإمكان.

كان الجوُّ عاصفًا. الزرع كله يتحرك بجنون كأنه سيطير. اقترحتْ هي أن نقوم بنقلها للداخل، لم أرد. توقف عقلي عن العمل، شعرتُ بأنني عاجز تمامًا عن التفكير، لم أكن أهتم فيما سبق بمثل هذا الكلام؛ أن أستمع لعرافة، أو أن أقرأ الطالع. لكن نظرتها كانت تبتلعني، تبتلع العالم كلَّه ولا تترك به سواي داخل إطار الكحل مع هاتين العينين اللتين تعرياني. ارتجفتُ، ربما من الهواء العاصف، أو من عينيها اللتين لم تذهبا من أمامي.

نظرتُ إلى أصص الزرع الضخمة. التي تملأ الأرض والسور وورودي المتناثرة بينها. ووجدتُ أنه من الصعب؛ إن لم يكن من المستحيل نقلها من مكانها. شيءٌ ما يراودني لأقوم بتجاهل كل هذا كأن لم يكن؛ إلا أن نظرتها وصوتها كانا يربكاني حقًا.

جاءتْ من خلفي، وربتتْ على ظهري، وبابتسامة واسعة قالت:

- لا تقلق.

نظرتُ لها شاعرًا بشيءٍ يجثم فوق صدري، حاولتُ أن أتكلم فلم أتمكن، اكتفيتُ بالنظر لها، وللورود التي تتراقص في الهواء.

***

واظبنا على الاهتمام بالورود قدر الإمكان، لاحظتُ أو لاحظنا أن ثمة عصافير تأتي دون أن نراها لتأكل الورود، نسمع صوتها؛ وعندما نخرج نجد زهرة أو اثنتين قد تقطعتا. كان هذا يحدث دومًا دون أن أهتم، أو ألاحظ، تذكرتُ أن عدد الزهور كان أكثر بكثير من ذلك، ولم يتبق الآن سوى سبع وردات فقط. قمتُ بتعليق ستارة ضخمة بعرض السور كله، وقمنا بشراء زهور جديدة لنكملها سبعًا كما كانت؛ لكن العصافير وجدت منفذًا صغيرًا تستطيع التسرب منه لداخل الشرفة. يزداد معدل أكلها في كل ليلة. في الصباح وجدتُ أنه لم يتبق سوى ثلاث وردات فقط. ثلاث من الوردات القديمة في الأصص الضخمة. كل الجديد قد تقطع.

«لماذا لم نضع الورود الجديدة بالداخل؟» تنظر لي دون جواب. «سأكملها اليوم، ونقوم بوضعها بالداخل».

***

تأخرتُ في العمل. وبائع الزهور القريب من بيتي لم يكن لديه سوى وردتين فقط. أصيصان صغيران ظللتُ أتطلع إليهما ولا أدري ما العمل! نظرتُ للساعة، كان الوقت ينفد ولا أعلم مكان أحد آخر يبيع الورود في المنطقة. لا مشتل آخر قريب مني، ودقائق قليلة ويبدأ حظر التجوال.

احتضنتُ الأصيصين الصغيرين وخرجتُ مسرعًا. كانت السابعة إلا خمس دقائق، أحاول أن أهرول في سيري، وصلتُ لأول الشارع عندما أوقفني الكمين المنصوب. الشارع قد أغلق بحواجز حديدية، وتناثر الجنود أمامه بتوتر. حاولتُ الكلام، وأنا أرفع يدي اليسرى ضامًا الأصيصين

لصدري لأشير للساعة بأنه لا تزال هناك خمس دقائق، وبيتي في آخر الشارع، دقيقتان وسـأكون هناك. أشار لي أحد العساكر بأن أصمت. أدرتُ عينيَّ حولي. عدد غير قليل من بائسي الحظ مثلي يبدو عليهم الهلع.

– يوجد مشتبهٌ فيهم، سنتحقق من هوياتكم ونصرفكم.

كان الضابط المسؤول عن الكمين؛ صوته جهوريًا، حاسمًا غير قابل للنقاش. طلبوا منَّا الاصطفاف في طابور بجانب الحائط وتسليم بطاقاتنا. تشبثتُ بالأصيصين بضمهما إلى صدري. اقترب مني جندي يتأمل ما أحمله، نظر لي قليلًا، قبل أن يقول:

– ماذا في يدك؟

– زرع.

– زرع!!

– نعم. مجرد زرع.

رأيتـه يبتعد نحـو الضابط، يهمس له قليلًا وهو يشـير نحوي قبل أن يتقدَّما سويًّا ونظرهما مصوبٌ نحو الأصيصين في يدي.

– البطاقة.

الضابط ينظر مباشرة في عينيّ وهو يطلبها. وضعتُ الأصيصين أرضًا بحرص بين قدميَّ وأنا أبحث في جيوبي عن البطاقة. أخرجتها بيد مرتعشة وناولتها له، أمسكها ونظر فيها طويلًا. طويلًا حتى كدْتُ أسأله عن السبب. ظلَّ ممسـكًا بها وهو يبتعد، أخبرته بأنني أسـكن في نفس الشـارع إلا أنه لم يلتفت. العسـكري أكمل بعده تناول باقي البطاقات من الناس حولي.

انحنيتُ وأمسكتُ بالورود من جديد. احتضنتها إلى صدري، واستندتُ على الحائط.

عاد العسكري دون الضابط، أو البطاقات. وبصوت أجش جهوري أخبرنا بأننا سننتظر هنا حتى الصباح. لوازم الكشف الأمني الذي سيتأخر، وعلى كل الواقفين تسليم كل ما يحملونه. تقدم من أول الطابور وبدأ في تناول الشنط والأكياس التي يمسكها الواقفون. كان يمسك بجوال ضخم يلقي فيه ما يأخذه من الناس دون اكتراث. اقترب مني، لمحتُ الضابط من بعيد ينظر إليّ متابعًا ما سأفعله، ترددت قليلًا، قلت له:

– لكنه مجرد زرع فقط. سأحمله أنا.

– سنأخذه.. لو لم تسلمه لنا سنأخذه في كل الأحوال.. ها؟

كنت أشعر بدوار خفيف مفاجئ ورغبة قوية في القيء. استندتُ على الجدار جانبي شاعرًا بعجزي عن التنفس. أسمع أصوات بعيدة، وأرى الأشياء مهتزة. والعسكري يمدُّ يده ليتناول الأصيصين من يدي دون مقاومة. وقبل أن يلقيهما داخل الجوال قلت له بصوت مبحوح:

– هل يمكن أن ترعاهما جيدًا؟

نظر إليّ نظرة خاوية، وهو يتحرك دون أن ينطق.

عتبة رخاميَّة باردة

قاطعــه الرنين المزعج المتصل لجرس باب الشـَّقة، انتفض وهبّ وهو يلهث. مسح عرق وجهه بيده، ومسح كفَّه كله في الفانلة الداخليَّة الواسعة وهو يمســح بها رقبته وأعلى صدره. نظر لها متســائلًا وهي تضمُّ قدميها لتندس تحت الغطاء.

أمسك هاتفه الموضوع بجانب السرير ليرى الساعة، كان الوقت متأخرًا. لا زيــارات متوقعة، بل لا زيارات من الأســاس. نادرًا ما يزورهم أحد، ولو فعل لن يكون في وقتٍ متأخرٍ كهذا.

هبَّ من الفراش وهو يلهثُ، نظر حوله ليلتقط بوكسره الكبير ويرتديه على عجل، اتجه نحو باب الغرفة المغلق وفتحه، خرج للممرِّ الصغير المفضي للصالة، أضاء النور ليجد وجه ابنه يخرج من الغرفة المجاورة، تركه واتجه

مترنحًا لباب الشـقة، نظر من العين السحريَّة فواجهه السواد، ضغط على زر نور السلم ونظر ثانية؛ لكن لم يكن هناك أحد. فتح الباب بحذر وخطا على الأرض الباردة، شعر بحصى صغيرة مدببة توخز قدميه، نظر حوله. فلم يجد أيَّ أحد. عاد للداخل ووجهه محتقن. ظلَّ متوقفًا قليلًا أمام الباب المغلـق. كانت زوجته قد ارتدتْ ملابسـها وخرجتْ وراءه. نظر لها دون كلام وهو يهزُّ رأسه.

«مين؟» واصل هزَّ رأسه وهو يقول لها بصوت مبحوح غاضب: «مافيش حد!». نظرتْ له بتعجب ولم تنطق، اسـتدارتْ لتعـود لغرفتها فوجدَتْ أولادهما قد اسـتيقظوا وخرجوا أمام الغرفـة. اتجَهتْ إليهم وهي تقول: «مافيش حاجة.. ارجعوا ناموا». اتجهتْ معهم لغرفتهم، أدخلتْهم ونظرَتْ لهم عبر الباب نصف المفتوح قليلًا قبل أن تغلقَهُ خلفها.

كان زوجها قد عاد للغرفة. وجلس على طرف السرير. دخلَتْ وجلسَتْ بجوارِه وهي تربتُ على كتفه وتبتسـم، فنظر لهـا ولان وجهُهُ فجأةً وهو يضحكُ حتى دمعَتْ عيناه. خلعَتْ ما كانتْ ترتديه على عجلٍ وصعدَتْ للسرير. ظلَّ هو جالسًـا مكانه قليلًا قبـل أن يلتفتَ إليها ويصَّعد ليتمدد جوارها مستندًا بظهره بوضع قائم. أمسك بكفِّها المستكين بجواره، وهو يحاول أن يتناسى ما حدث.

كان القلـق يتسربُ إليه مع كلِّ نفس. من يصعدُ للطابق الأخير ويرنُّ جـرس الباب في مثل هـذا التوقيت ويختفي بعدها؟! كانـتْ العمارةُ على الدوام هادئةً، قليلة السكان. ولا مجال لمثل هذه الأمور، فاليافطة النحاسيَّة

الصغيرة تزيِّنُ باب الشقَّة من الخارج باسمه. انتفض عندما وضعتْ زوجته كفَّها على صدره. كانتْ رأسها مستريحة على الوسادة جانبه وشعرها متناثر ناعم. أصابه فتورٌ وضيق. لم يكدْ يبدأ معها حتى قاطعه ذلك الرنين. كان الوضع مثاليًا؛ أولاده نائمون، وغدًا عطلة من عمله، وكانت توحشه، لم يفعلها معها منذ أيام لا يذكر عددها. العمل والإجهاد وضيق الوقت والفكر المشغول دومًا.

ربتَ على كتفِها ببطءٍ وهو يعتدل لينام جوارها، فهمتْ ما قصده فأغمضَتْ عينيها محاولةً الغياب والنوم وهي تدير رأسها لتنظر للناحية الأخرى. ظلَّ هو محدقًا في السقف المظلم إلى أن غلبه النوم.

***

جاءَهُ اتصالٌ من أخيه عصرًا. صوته المرح يخبره بأنَّه سيذهب للنادي هو وأولاده، ويريد أخذ أولاده معه أيضًا ليلعب الأطفال مع بعضهم. صمت مُحرجًا وحاول الاعتذار لكن أخاه أصرَّ. قال له بأنَّه سيمرُّ عليه ليأخذهم معه، سيكون بالسيارة أسفل المنزل بعد صلاة المغرب، شكره وهو ينظر لزوجته جانبه نظرة ذات مغزى ويبتسم.

في الموعد سمع هاتفه يرنُّ. كان أخوه قد وصل، هبَّ أولاده من أماكنهم بسرعة وهم يجرون لباب الشقة. أوصاهم بالهدوء والأدب وأن يسمعوا كلام عمِّهم. نزلوا على السلم يتقافزون، ظلَّ واقفًا إلى أن غابوا عن عينيه فاتجه للبلكونة لينظر إليهم ويشير لأخيه ملوِّحًا. ظلَّ يتابع السيارة إلى أن غابتْ في آخر الشارع.

استدار لينظر لزوجته فلم يجدْها خلفه، اتجه لغرفتهما، كانتْ مضاءةً بأباجورة خافتة وزوجته مستلقية على السرير تبتسم. نظر لما ترتديه وشعر بحرارته تتصاعد، اقترب منها فتقلبتْ ونامتْ على بطنها وهي تدير رأسها للجانب الآخر. كانت شهيةً لم تفقد طزاجتها أبدًا. صعد على الفراش مادًّا يده ليتحسس شعرها المتناثر فابتعدتْ في دلال، شعر بالسخونة تجتاحه. كان يريحه عدم وجود الأولاد بالمنزل. لا يحبُّ المقاطعة في هذا. وهم غالبًا ما يطرقون الباب ما أن يُغلق.

كان مرتاحًا، شاعرًا بإثارة تتصاعد. اقترب منها أكثر ليتصاعد لأنفه عطرها الخافت الذي يحبُّه. واصلت هي تدللها وابتعادها، فاقترب ليلتصق بها ويشعر بدفء جسدها. وتشعر بانتصابه الساخن. بدأ سريعًا، لم يتحمل الانتظار. ما أن استقر بين فخذيها حتى دوَّى جرس الباب الطويل المتقطِّع.

انتفض وهو يتراجع للوراء لاهثًا، نظر لها ولحاجبيها المعقودين ولم يدرِ ماذا يفعل! فكر في تجاهل الجرس؛ لكنه فكر بأن ربما أولاده عادوا لأيِّ سبب. قام من مكانه بضيقٍ شديد، لتندس هي أيضًا تحت الغطاء المتناثر أسفلها. تناول بوكسره وارتداه على عجل شاعرًا بفتور وارتخاء وهو يتجه لباب الغرفة، لم يكن مغلقًا فخرج للصالة المضاءة بأضواء الغروب الخافت وفتح باب الشقة سريعًا دون أن ينظر من العين السحرية متوقعًا أولاده بالخارج. كان الفراغ هو ما واجهه. لم يكن هناك أحد.

خرج بحذر لينظر عبر السلم للطوابق السفلية فلم يجد أحدًا. ظل واقفًا مكانه شاعرًا بالبرودة تتسرب من الأرض الرخامية تحته لجسده كله.

سبَّ بعصبية مكتومة، وقام بصفع الباب خلفه. عاد للداخل ليجد زوجته خرجت على صوت الباب المُغلق بعنف. «تاني؟» نظر لها ولم يتكلم. عاد فجأة لباب الشقة مسرعًا، وفتحه بسرعة ليواجه السلم الخالي. ظلَّ متوقفًا ثوانٍ قبل أن يغلقه من جديد بعنف.

اتجه لأول مقعد بالصالة ليجلس عليه. كان الظلام قد حلَّ، وأضواء الشارع هي فقط ما تضيء المكان حوله. ظلَّ جالسًا عاجزًا عن التفكير أو فهم ما يحدث. للمرَّة الثانية يحدث ما حدث؛ ما أن يبدأ معها حتى يرنَّ جرس الباب دون وجود أحد بالخارج، كأنَّ أحدهم يراه ويتلصص عليه. هبَّ مسرعًا مارًا من جوار زوجته المتوقفة جانب الكرسي. اتجه لغرفته ليتأكد من غلق شباك الغرفة، وجده مغلقًا، اقترب منه محاولًا النظر عبره فلم يرَ شيئًا. كان ظلام الغرفة يحجب رؤية الخارج. كان يفكر بأنَّها ربَّما صدفةٌ تتكرر للمرَّة الثانية. متحيرًا مشوشًا اتجه ليجلس على طرف الفراش.

أزعجه جدًا الشعور بأنَّه مُراقب. الأدهى أنه مُراقب في هذا الأمر بالذات دون أيِّ فعلٍ آخر يفعله طوال اليوم بالبيت. عادتْ زوجته دون أن تجد ما تقوله أيضًا. أضاءتْ النور وقامتْ بشدِّ الستارة الكبيرة لتغطي النافذة المغلقة، ثمَّ عادتْ لتُطفئ النور. صعدتْ للفراش لتجلس مستندةً للوراء وهي تضمُّ ساقيها لصدرها وتحتضنهما بذراعيها، تمدد بجوارها موليًا إياها ظهره محدقًا في الفراغ أمامه.

***

حاول تناسي الأمر لكنَّه لم يتمكن، ظلَّ يلحُّ في باله طوال الوقت. فكرة

أنَّه مراقبٌ كانت تطنُّ في عقله بلا هوادة. كان مشـتتًا في العمل، وعندما يعود للبيت يظلُّ سـاهمًا، حريصًا طوال الوقت على إغلاق النوافذ كلِّها. يظلُّ منشغلًا بلا شيء حتى يدخل للفراش مباشرة وينام دون كلام.

زوجتـه كانت تتكلم معه طوال الوقت. تحكي عن أي شيء. يظلُّ هو ناظرًا لها دون أن يركز فيما تقول. نظرته معلقة بوجهها دون كلام. لم تفتح معه الموضوع، لا تدري ما رد فعله. ربَّما يثور ويصيح، وربما يصاب بهواجس أكثر مما في رأسـه. تعاملتْ مع الموضوع بهدوء وحـذر. وكلما أتيحتْ لها الفرصـة كانت ترتدي ما يروقه وتقترب منه في الفراش؛ فيتراجع بفتور، ويهمهم بما لا تسـمعه. لم تحـاول أن تتكلم أو تطلب. فقـط تنظر له بلوم مكتـوم. يتحجج أحيانًا بالإرهاق والتعب. وأحيانًا كثيرة بنفس الهمهمةً غير المفهومة.

لم يتكرر موضوع الجرس ثانية، فقط عندما كان يرنُّ في منتصف اليوم ينتفـض ويسرع عدوًا للبـاب فيجد أنه أخوه، أو أمهـا. لا شيء غريب، ولا أحـد غير مألوف. كثـيرًا ما كان يتجه وحده بحذر نحو باب الشـقة ويقوم بفتحه فجأةً. يخرج للسلم حافي القدمين لينظر حوله ثم يعود ثانية للداخل. أصابها القلق على حالته التي تزيد وتنمو. لا تدري ما في رأسه، لكنَّها أصبحتْ تقلق وتنزوي داخل نفسـها. لم تحاول معه مجددًا، وهو لم يقترب منها كأنَّما ينتظر رنين جرس الباب كل هذا الوقت.

فكَّرتْ في شيء طرأ على ذهنها فجأة، انتظرت لتختار وقتًا مناسبًا لتخبره؛ في ذلك اليوم نام أولادهما مبكرًا. كان هو يعبث بأيِّ شيءٍ بالخارج. أغلقتْ

شبَّاك الحجرة وقامتْ بشدِّ الستائر جيدًا أمامها. ارتدتْ ما يحبُّه ووضعتْ عطرها الذي يفضله، تكوَّرتْ في الفراش دون أن تنادي عليه إلى أن صمت صوت التليفزيون بالصالة، وسمعتْ مفتاح النور بالصالة يُغلق، ورأت الظلام يهبط أمام باب الغرفة، فاعتدلتْ مكانها سريعًا.

مـرَّتْ ثوانٍ لتراه يدفع الباب برفق ليدخل، تسـمَّر مكانه عندما رآها هكذا، ابتسـمتْ، فبادلها الابتسـامة المشـتتة الحذرة. مالتْ برأسها ناحية اليمين وابتسـامتها الدافئة تتسع. ظلَّ مكانه قليلًا قبل أن يدخل ليجلس أمامها على طرف الفراش. أمسـكتْ بكفِّه لتجـده باردًا، متعرقًا. ضمَّتْ كفَّـه إليها بقوَّة وهي تقـترب منه. ظلَّ صامتًا محاولًا البحث عن أيِّ شيءٍ يقوله؛ لكنَّه لم يجد. ينظر إليها ويتأملها كلَّها بعينيه، صدرها المفتوح، المتدلي نصفه للخارج، وعطرها المتسلل لأنفه بهدوء ورغبة. كانت توحشه؛ ربَّما كان هذا سر عصبيته المفرطة في الأيام الطويلة الفائتة.

شعر بالدفء والحرارة تسري في جسده ببطء، وهي تواصل الاقتراب منه. ربتتْ على كتفه، قبل أن تقول: «إيه رأيك تفصل جرس الباب؟»، كانت مُقتضبة مُحددة فيما تقوله. بدا أنه لم يسمعها قبل أن يحاول الابتسام وهو يهزُّ رأسـه بلا معنى. «خلينا نجرب المرة دي». بصوتها الهامس شبه المبحوح، وهي تقترب برأسها من رأسه. مررتْ كفَّها على رأسه من الخلف بنعومة، فقـام دون اعتراض أو تفكير اتجه للخارج، وقام بإنزال سـكينة الكهرباء الخاصة بنصف الشقَّة الخارجي، عاد شاعرًا ببعض الارتياح والإثارة.

كانتْ ابتسـامتها تتسع وهي تمدُّ له يدها ليقترب منها ويغيبا في حضنٍ

ساخن. كان متمهلًا هذه المرة كأنَّما يودُّ ألا يحدث؛ على الرغم من انتعاظه، وإثارتـه. ترك عقله يهدأ ويغيـب، لم يحاول التفكير، اقترب منها بشـوق وحرارة، تحسس جلدها الناعم الجميل.

عندما رنَّ جرس الباب انتفضا سويًّا. تراجع هو للوراء سريعًا، وقفز مـن على الفراش، ليقف مترنحًا في منتصـف الحجرة أمام السرير المبعثر، يلهث مبللًا بالعرق. ظلَّتْ هي مكانها لم تتحرك، ولم تدخل أسفل الغطاء، ولم تُغلق حتى سـاقيها. تحرك هو لباب الغرفـة بآلية قبل أن يتوقف فجأة شـاعرًا ببرودة رخامية تلسـع باطن قدميه. ينظر بتشتت أسفل منه فيرى السجادة الصغيرة مكانها. يرفع عينيه للفراغ ويعود للفراش ثانية، يجلس عليه، قبل أن يسـتلقي مُعطيًا ظهـره لزوجته، ونظره معلَّقٌ بالظلام الذي يتسع أمامه.

فانلة زرقاء مخططة

1

ابتسمتْ عندما رأتني أرتدي تلك الفانلة القطنية المخططة. تحسستها وهي تواصل الضحك: «بحبها أوي عليك. شبه عصابة القناع الأسود». فانلـة زرقاء داكنة بها خطوط بيضاء عريضـة. اقتربت مني فوق الفراش ليقتحمني عطرها الخافت الممتزج برائحتها الشهية المتصاعدة؛ «عموما أنا بحب عصابة القناع الأسود». تنظر لي بدلال وهي تقول بهمس: «عارفة، وأنا كمان بحبهم». تصمت قليلًا لتكمل بصوت متقطع مبحوح «أوي». تمـد يدهـا لتطفئ النـور جانبي، كان يزعجنـي الظلام إلا أننـي لم أهتم. لا يهم الضوء في حضورها البهي.

2

كان غريبًا أن تطلب مني ذلك في مثل هذه اللحظة. ظنَّنت أنها تتدلل، وتتمنع؛ لكنها أصرتْ، ابتعدتْ عن حضني قليلًا وهي تؤكد طلبها. شعرت بالفتور قليلًا، فاستندت للوراء وأنا أشعل سيجارة.

«ما المشكلة؟» قالتها بصوت هامس مبحوح وهي تتناول السيجارة من بين أصابعي. «لا مشكلة»، وأنا أحاول أن أتناول الأمر باعتيادية. تقترب مني من جديد. وهي تمرر يدها على رقبتي وتنفخ الدخان ببطء خلف أذني. أحاول أن أفكر في الأمر؛ لكني قررت أن أنفذ لها طلبها. نهضتُ من مكاني، واتجهت للدولاب لأفتحه وأتناول من الداخل الفانلة الزرقاء. ارتديتها وعدت للفراش من جديد.

«حلوة على البوكسر الأزرق»؛ وهي تتحسس الفانلة بشبق. غبنا في قبلة طويلة محمومة. مدَّتُ يدَي لأخلع الفانلة لكنَّها أوقفتني: «خليها». تعجَّبَت لكنَّي واصلت تداخلي في ثنايا جسدها الساخن. توقَّعت أن تطفئ النور؛ لكنَّها لم تفعل. ظلَّتْ تتحسس الفانلة فوق جسدي بشبق متزايد أثارني أكثر. تمسك بها بين أصابعها وهي تشدُّني منها. لم يشغل الأمر بالي، ولم أنتبه أنها قبل أن تصل، عضَّتْ طرف الفانلة بدلًا من أن تعض رقبتي كما اعتادتْ أن تفعل.

3

عندمـا عُدت من الخارج كانت ترتديها وحدها. كبيرة واسـعة عليها لكنَّها كانتْ سعيدةً بها. طويلة تغطي مؤخرتها العارية. وقفتْ أمامي تدور حول نفسها: «إيه رأيك؟» أنظر لها بدهشة قليلًا، وأنا أتأملها عليها. كانتْ ممطوطةً قليلًا من ليلة الأمس. تلفُّ ذراعيها حول نفسـها بشـغف وهي تحرك الفانلة فوق جسـدها العاري. كنتُ متعبًا؛ لكنَّها كانت مثيرةً وهي تتحرك حول نفسـها بخفَّةٍ. تقترب منِّي وهي تشـدُّ طـرف الفانلة لأعلى لتكشـف عن ثنايا جسـدها ببطء وغنج. اقتربتُ منهـا وأنا أنزع ملابسي وأتركها تتساقط خلفي.

مددتُ يدي لأنزع الفانلة؛ لكنَّها انتفضتْ وتراجعتْ للخلف بانزعاج. نظرتُ لها غير فاهم لكنَّها همستْ: «كدا. هانعمل دا وأنا لبساها». شعرتُ بضيـق مفاجئ وانطفـاء؛ لكنَّها كانتْ سريعةً، ودافئـةً وهي تقترب منِّي لتلتصق بي. تمسك بكفِّي لتمرره على ظهرها من فوق الفانلة، تهمس بصوت مبحوح خافتْ: «الفانلة سخنة أوي.. حاسس». كنتُ أحسُّ بدفء جسدها المتصاعد، فهمهمتُ وأنا أمرر يدي لأسفل لأصل لجسدها. لكنَّها للمرَّةِ الثانية تنتفض، وتقبض على كفِّي بعنف: «خلي إيدك فوق». انطفأتُ تمامًا، وأنا أتراجع على الأرض لأستند على الحائط خلفي. لم أكن أفهم ما بها. أنظر لها بحيرة وغضب مكتوم. لكن بدا أنها لم تهتم. ظلَّتْ مستلقيةً على الأرض تتلوَّى عليها وهي تمرر كفيها المفتوحين فوق الفانلة كأنها تمزجها بجلدها

العاري المشدود أسفلها. تلهث وصوت تنفسها يعلو بحرارة. تتحسس الفانلة فوقها بجنون وهي تواصل التلوي أمامي. تقترب لتشدني مجددًا وتلفُّ ساقيها حولي، كانتْ حركتُها مثيرة. وصوتها المبحوح المتحشرج ساخنٌ. استسلمتُ لها محاولًا تناسي الفانلة التي تحول بين تلامسنا الكامل، وحاولتُ الانتهاء سريعًا لأتركها بعدها على الأرض مغمضة العينين، تلهث وهي تحتضن بكفيها طرفي الفانلة بشبق لم أره فيها من قبل.

4

نسيتُ الأمر، أو تناسيتُه، ظلَّ عالقًا في بالي قليلًا، لكني لم أعرف ماذا أقول. هل أقول لها أنها تهتم بالفانلة أكثر مما تفعل معي؟ كنتُ أنظر للفانلة التي تعلقها على ضلفة دولابها باهتمام ولا أفهم الأمر. هل أشعر بالغيرة من فانلة! فانلة قطنية تزاحمني الفراش! رفضتْ هي أن آخذها ثانية، طلبتْ أن أتركها لها ففعلت. تلبسها وحدها كل يوم قبل أن تنام؛ تقريبًا لا ترتدي غيرها طوال اليوم، وعند النوم أيضًا. كان الأمر غريبًا غير قابل للتفسير.

ذلك اليوم عدتُ من الخارج متأخرًا. وصلني صوتُها وأنا على باب الشقَّة، تجمدتُ لثوانٍ وآهاتها تصلني عالية ساخنة. شعرتُ بانقباضة حادة في معدتي خطوتُ نحو غرفة النوم وأنا أرتعش. كان الباب مواربًا وضوء الأباجورة الخافت يتسرب للخارج مع صوتها. كانتْ وحدها مستلقية على الفراش تتلوىَّ وهي تحرك رأسها ليتناثر شعرها حولها. كانتْ تضمُّ

يدها على صدرها كأنها تحتضن أحدًا. اقتربتُ عبر الباب قليلًا، لأرى أنها تحتضــن الفانلة في حضنها وبين فخذيها بجنــون. والفانلة بدَتْ لي قليلًا، كأنَّها تتحرك فوقها وحدها، لأعلى وأسفل بثقةٍ وثبات.

رقصة أخيرة

يُنادي عليهـا بصوته الأجش المتحشرج. تدخـل إليه مسرعة متوقعة ما سـتراه، وما يريده. ممددٌ على الفـراش المبعثر محاولًا إنزال سرواله بيده اليسرى شـبه السليمة. يده اليمنى تتدلى جانبه مُلقاة فوق الغطاء كأنَّها لا تخصُّه. يميل بجسده ناحية اليسار محاولًا رفع رأسه لأعلى بصعوبة. شعره الأبيض مبعثر، وذقنه النامية تأكل ما تبقى من ملامحه. ينهج واللعاب يسيل على شفتيه وهو ينادي عليها من جديد.

كانـت بالغرفة، لكنَّه لم يرهـا. بصوتها الضعيف: «أنـا هنا». دون أن يتكلم، يواصل بيده اليسرى محاولات إنزال سرواله لأسفل. تقترب منه محاولة تحييد ملامحها أمامه، ترفع جذعه لأعلى وتضع خلفه وسادة متحجرة القطن، يرفع رأسه لينظر إليها بنصف عين. تواصل ما تفعله بآلية، تشدُّ له

سرواله ولباسه الداخلي لأسفل، لترى عضوه متمددًا منتصبًا. كان يلهث والعرق يتكاثف على جبهته ووجهه ورقبته. اللعاب يتجمع على شعر ذقنه أسفل شفتيه. يزوم، فتقترب منه وهي تمسك عضوه بقبضة يدها. تلفُّ أصابعها عليه وتبدأ في تحريكها لأعلى وأسفل. وجهه يحتقن، وأنفاسه تتقطع. يمدُّ يده شبه المتحركة ليلفها بصعوبة على كفِّها الصغير، لتقبض على عضوه بقوَّة أكبر.

تواصل تحريك يدها بتسارع وقوَّة. يتشنج جسده، ويرجع رأسه بقوة للوراء وعضوه يقذف على يدها وبطنه وملابسه سائله الأبيض الداكن اللزج. تتركه من يدها ليهوى مائلًا منكمشًا على بيضتيه المحتقنتين. يواصل اللهاث بأنفاس متحشرجة متقطعة. تتناول قطعة قماش من جانبه لتمسح فيها يدها. وتمسك بعلبة سجائره لتخرج له واحدة. تشعلها له بيد مرتعشة، وتضعها في فمه. وجهها محتقن، وأنفاسها متلاحقة. تحاول ابتلاع أي تعبير أو إحساس يتسرب ليرتسم على وجهها.

يسحب نفسًا طويلًا من السيجارة، ليسعل بعدها بشدَّة. يرتجُّ كله وحشرجة صدره تتصاعد وتعلو. تعيد رفعه لأعلى وهي تعدل له ملابسه. تضع وسادة أخرى تحت ذراعه الأيسر ليستطيع إمساك السيجارة بأصابعه المرتعشة. يسقط رماد السيجارة على صدره، فتنظر له دون أن تفعل شيئًا.

تتراجع للخلف نصف خطوة، تحاول أن تخرج من مجال رؤيته، تسمع حشرجته المكتومة وهي تتراجع للوراء، تخرج من الغرفة سيئة التهوية، مقفولة الشباك على الدوام. تقف في الصالة أسفل المصباح الأصفر الكالح،

تنظر طويلًا للغرفة شبه المغلقة وقناع ملامحها الجامدة ينهار؛ لتجهش ببكاء دون صوت.

***

«البروستاتا ملتهبة بشدَّة، محتقنة ومتورمة. هذا عادي بالنسبة لسنه ولحالته الصحية. ولكنَّه يجب أن لا يثار. لا يجب أن يتعرض لأي إثارة حسية من أي ناحية. يجب ألا يحدث انتصاب أو يشعر بشهوة. فهذا سيزيد الحالة سوءًا. لو ازداد الاحتقان سيكون هناك تدخل جراحي، سيضطر لإجراء عملية ربَّما لن يحتملها جسده».

ينظر لها الطبيب من تحت نظارته ليرى مدى استيعابها للأمر. فتهزُّ هي رأسها فهمًا. كانتْ أمامه كومةٌ من التحاليل الطبية والأشعات وروشتات الدواء والتقارير الطبية. يقلب فيها ببطء، وهو يقرأ كل أوراق تاريخه المرضي.

«لن نحتاج لأشعات أو تحاليل جديدة، سأكتب له على أدوية ستساعده. ولكن من المهمِّ جدًّا ألا يشعر بأيِّ إثارة مهما كانتْ لأنها ستزيد من الاحتقان لديه».

يقولها الطبيب، وهو ينظر إليه على كرسيه المتحرك بجانبها. يحاول الرجل أن يعتدل، وهو يشدُّها من كمِّها، يهمهم بكلمات متقطِّعة. تنظر له وهي تحاول أن تداري وجهها من الطبيب.

«أخبريه.. أخبريه». يتنبه الطبيب لما يقول فينظر لها. تواصل هي بعثرة نظراتها في أرضية الحجرة، تسحب شهيقًا طويلًا وتهمس دون أن تنظر

لعينيّ الطبيب: «هو شـهواني جدًّا. يريديني أن أخبرك أنَّه شهواني جدًّا؛ على الرغم من حالته وشلله، إلا أن الشهوة عنده متَّقدة ودائمة. منذ وفاة أمي وهو يعاني من الشهوة الحارقة التي لا يستطيع السيطرة عليها. لا تنفع معه المشروبات الدافئة كالينسون، ولا حتى المهدئات الطبية حتى لا تكتبها له فهي بلا فائدة معه. جرَّبنا الكافور كثيرًا، لكن بلا فائدة أيضًا».

قالـتْ ما قالته في نَفَسٍ واحدٍ ووجهها يحتقن ويتعرَّق بكثافة. ظلَّ هو ناظرًا بعين نصف مغمضة للطبيب، الذي تراجع في كرسـيه وهو يتأملهما معًا. خلع نظارتـه الطبية ووضعها بهدوء على الأوراق أمامه على المكتب الصغير، محاولًا استيعاب ما قالته.

أكملتْ بصوتها المبحوح: «فشـل كثير من الأطباء في تشخيص حالته تلـك. ظلُّوا عاجزين عن فهم كيف يحدث هذا، وقالوا لنا بأنَّ هذا منافٍ للمنطق. اضطررنا للمجيء لك لأن الحالة تزداد وتتوحش».

«حسنًا. في كل الأحوال سأكتب لك مهدِّئًا يحدُّ من شهوتك ويجعلك غير مسـتثار» قاطعه بحـدَّةٍ وهو يزوم. أخذ يتحرك على كرسـيه بعصبية واللعـاب يتناثر من فمه ويتجمع على شـفته السـفلى. يتكلم بما لا يفهمه الطبيـب، ثم أخذ يكرر: «انظر.. انظر» وهـو يحرك يده اليسرى بصعوبة يحاول أن يفكَّ حزام بنطاله.

حاول الطبيب تهدئته، إلا أنه أخذ يتحرك مكانه بجنون وهو يحاول أن ينزل ملابسه لأسفل. حرك قدمه المتحركة ليدفع بها ابنته الجالسة لتساعده. «اهدأ يا أبي. لا يصحُّ هذا». ازدادت عصبيته وصياحه المكتوم المتحشرج،

احتقن وجهه وهو يشدُّ ملابسه بجنون. خافتْ أن يقوم بسبابها أمام الطبيب، فنظرت للأخير بلا حيلة وهي تقوم لتساعده على إنزال ملابسه لأسفل، أدارتْ رأسها للوراء وهي تفعل وتحركت من مكانها سريعًا بعدها واتجهتْ لتقف بالجانب الآخر من المكتب.

كان أبوها يلهث بشدَّة وهو يصرخ في الطبيب بحروف متآكلة: «انظر.. انظر». كان يمسك في يده بعضوه المنتصب الكبير وهو يصرخ بكلمات كثيرة لم يفهم منها الطبيب شيئًا. نظر له الطبيب قليلًا بوجه محتقن، وهو مُحرج، قبل أن يجلس مكانه ثانية. ويشير للابنة أن تعدل له ملابسه.

قالت «هو يريد إخبارك بأن هذه حالته على الدوام. دائمًا ما يشعر بانتصاب وشهوة تزيد من احتقانه».

نظر الطبيب للساعة الموضوعة على طرف المكتب، قبل أن يقول لهما وهو يلمُّ الأوراق الكثيرة من أمامه «سأخبركما بما يجب أن تفعلوه. لا حلَّ لديّ سوى هذا، لا بد من تفريغ».

***

ينادي عليها من جديد، تسمع صوته فتنتفض، تفكر في ألا ترد. لكن آخر مرَّة فعلتْ فيها هذا دوَّى صوته المتقطع عبر أرجاء البيت ليعبر للجيران عبر الشباك المفتوح. ليسمعوه وهو يقول لها «يا شرموطة». دائمًا ما يقول لها هذا حتى قبل أن تفعل ما فعلتْ بتعليمات من الطبيب الأخير، لكنَّه زاد في الحدَّة والقسوة إذا ما تأخرتْ في الدخول إليه يزوم ويصرخ ويسب. يمسك بشعرها بيده السليمة ما أن تدخل. تهتزُّ أصابعه وهو يرجُّ رأسها بعنف،

لا يهدأ حتى تنزل له سرواله ولباسه الداخلي وتمسك بعضوه المنتصب. لم تعد تفعل أيَّ شيء تقريبًا سوى ذلك. خدمته الكاملة، ومتطلبات البيت، وهذا قبل كلِّ شيء.

تسمعه يصرخ عليها من جديد، تدخل للغرفة، تقف أمامه تنظر إليه دون صوت، تراه وهو يحاول إنزال ملابسه. يهتزُّ مكانه بشدَّة، يتحرك بعصبية وجنون، يصرخ واللعاب يسيل على ذقنه وهو يشير إليها أن تقترب.

تظلُّ واقفةً قليلًا مكانها قبل أن تتجه للخارج، للشباك المفتوح بالصالة وتغلقه بعنف. تنزل من على الكنبة المواجهة لغرفته وتتحرك ببطء نحو فراشه من جديد، وتعيد التطلع إليه. تنظر إلى طرف عضوه الذي يجاهد لإخراجه من الملابس. تراه مُنتعظًا مُحتقن الرأس. يواصل الصراخ العصبي غير المفهوم وهو يحاول رفع نفسه لأعلى. جسده كله يرتعش، والعرق يغمره بالكامل. تسمع سبابها، وسباب أمها. شخره المتواصل لها، وإشارته المرتعشة لتقترب.

تتراجع للوراء بخطوات ضيقة. تظلُّ هذه المرة في مجال رؤيته. أمام عينه السليمة شبه المفتوحة. يرغي ويسبُّ ويشخر. تتراجع خطوتين أخريين. تقف أمام باب الحجرة الموارب. كانتْ حركته قد هدأتْ، وإن ظلَّ ينتفض غضبًا مكانه. تنتظر ثوانٍ قليلة أخرى وهي تركز نظرها في عينيه التائهتين. تراه ينظر إليها وقد خفتتْ حركتُه. وجهه محتقن، والعرق يسيل ليبلل ملابسه كلها، والوسادة أسفل منه.

تنظر لرأس عضوه الذي فشل في إخراجه من البنطال. بدأ يزوم من

جديـد وهو يحاول الحركة. تمـدُّ يدها ببطء لتنزل بنطالهـا القطني. تتركه يسـقط أسـفل منها. ينتفض، وتبرق عينه الوحيدة. تتلاحق أنفاسـه غير فاهم لما ستفعله.

تواصل هي، فتخلـع فانلتها العلوية، تخلع ملابس البيت كلها أمامه، تقف أمامه بالكيلوت والحمالة السـوداء العريضة. كان وجهه مُحتقنًا يكاد ينفجر. أنفاسه تتلاحق، واللعاب يسيل كالشلال على ذقنه.

تلفُّ حول نفسـها لفة كاملة وهي تفكُّ شعرها لينسدل على ظهرها. تمدُّ يدها لتفك حمالة صدرها لينطلق ثدياها حُرَّين لأسفل. ترفعهما بكفيها وهي تواصل التحديق في عينيه. كان ينتفض كأنَّه محموم. والحروف تخرج منه متقطعة مليئة باللعاب والسعال المليء بالبلغم. تدور حول نفسها دورة أخيرة وهي تتراجع خطوة أخرى للوراء.

تمد يدها لتنزل كيلوتها وتتركه يسـقط بين قدميها، تظلُّ جامدة مكانها لثوانٍ لتتركه يتأملها قبل أن تدير له ظهرها لتواجهه بمؤخرتها.

تفتح الباب خلفها على مصرعيه، تتمهل في سيرها وهي تذهب للكنبة المواجهة لغرفته بالصالة، تجلس عليها في مجال رؤيته المتقطعة، وترفع قدميها عاليًا أمامه. قبل أن يغوص كفُّها بين فخذيها، وتترك صوتها يتعالى ليصل إليه وهو ينتفض انتفاضات متقطعة.

هوتيل كاليفورنيا
«ديجافو»

1

زجاجات البيرة الفارغة وسط علب السجائر المتناثرة، والطفايات الممتلئة. الدخان الساكن مكانه، وخيالات مهتَّزة لأناسٍ رحلوا منذ ساعات، ونسوا ظلالهم هنا. واللحن المميز المحبب يدوِّي فوق الرؤوس. أطباق ممتلئة بالجبن وبعض الخس والترمس. تهمس لي: (ترمس؟) أعلم أنها تكرهه، فأبتسم، وأنا أزيحه بعيدًا.

أتناول آخر جرعة من زجاجتي. من قال إن الكثير من البيرة يُسكر؟

هي تجلو الذهن. ترسلك في مكان بعيد وحدك. تجلس فيه لترقب الناس من خلف حاجز سميك. تبني حولك جدارًا، لا يخترقه سوى من أردت أنت. تهمس لي من جديد: (روحت فين؟) فأنظر لها وأبتسم. أقترب بمقعدي منها أكثر، أتناول من أصابعها السيجارة المتآكلة، أضع فمي مكان فمها وأسحب نفسًا كبيرًا، أمدُّ يدي أتحسس شعرها شبه المتناثر، أضمُ رأسها من الخلف، أريحه ببطء على كتفي. تغمض عينيها، فأقترب بوجهي منها وأقبِّلُها على خدِّها الممتدِّ أمام عيني؛ تنتفض. فأنتفض. تقول لي: (مش هشرب معاك تاني).

أبتسم وأنا أتناول الزجاجة من أمامي لأشرب منها. كنتُ أعتقد أنها انتهتْ منذ قليل، وكنتُ أهمُّ بطلب واحدة أخرى. من الجيد أني لم أطلب؛ فالمئانة ممتلئة عن آخرها ولا أريد الذهاب للحمام وتركها هنا وحدها. المكان غريب بالنسبة لها.

كانتْ خائفةً قليلًا قبل المجيء، لكني عندما أخبرتها باسم المكان ابتسمتْ ووافقتْ. قالتْ لي: (لو أنت اللي كنت هاتسمي المكان، مكنتش هاتختار اسم تاني)، فأبتسم من جديد. لم أفعل شيئًا منذ قدومي سوى الابتسام الأبله، حاولتُ التكلم؛ لكني صمتُّ. حاولتُ تذكر صوتي، فلم أفلح. نسيته، ولو سمعته الآن فلن أعرف بأنَّ هذا هو صوتي. أحتاج من أحد أن ينطق بصوتي حتى أعرفه من جديد. أن يشير لي أحدهم ويقول (هذا صوتُك) فأعرف بأن هذا صوتي وأستعيده.

هواء البحر يأتي متسللًا من النافذة البعيدة شبه المفتوحة. فكرتُ بأن

آخذهـا ونهبط لنمشي على البحر كما وعدتهـا. فأغمض عيني ليأتي البحر حولنا. ممتزجًا باللحن المتصاعد الممتد منذ قدومنا.

تفتح حقيبتها وتخرج محمولها. تنظر في الساعة وتندهش. تسألني: (هو إحنـا جينا السـاعة كام؟) فأهزُّ رأسي غير عالم. تواصـل كلامها بصوتها المبحوح، وهي تنفخ الدُّخان في وجهي: (إحنا بقينا بكره.. أحيه).

تسـحب زجاجتي وتشرب منها آخر ما بقي بها. (أنا كدا مش هدخل البيت) تنتفـض فجأةً وهي تفتح حقيبتها من جديد، تبحث فيها بعصبية قبـل أن تلقيها بعيـدًا وتقول: (ومش معايا الباسـبور بتاعي.. يعني مش هاينفع حتى أسافر معاك).

أحاول طمأنتها لكني أواصل التقوقع، أمسك كفَّها الصغير فتتركه لي. تقترب مني، فأشمُّ عطرها الخافت. تقول: (مش لازم أسافر بالباسبور؟ صـح؟ ممكن بالبطاقة بتاعتي.. عادي، مش كدا؟) فأهزُّ رأسي مشـجعًا. فتبتسم وتسكن حركتُها القلقة.

أضمُّها من جديد، فتترك رأسها على كتفي، وشعرها المنسدل يرسلني لعالم بلا أرض. لا شيء سوانا هناك، ومعنا أغنيتنا التي لا تنتهي. أمدُّ يدي للزجاجة فأجدها ممتلئة إلا قليلًا. من الجيد أني لم أطلب واحدة جديدة.

(حكايـات كثيرة عن ظاهـرة الديجافو؛ منها التفسـير العلمي الجامد عـن أن الدماء تصل لنصف المخ الأيمن قبـل الأيسر، فتتكرر الصورة في المخ، فنشـعر بأننا رأينا ما رأيناه من قبل. لكن هناك تفسـير آخر. بأن هذا

انعكاس لحياة سابقة في نفس الأماكن، وربَّما مع نفس الأشخاص، وربَّما لنفس الموقف. أحيانًا تشعر وأنت تتكلم بأنَّ ما ستقوله قد قلته من قبل. وهو ما يلغي التفسير العلمي؛ لأنَّ الدماء لم تصل لنصف المخ بعد ما قيل، ولكن قبل أن يُقال. أحيانًا تدخل لأماكن وقبل أن تدخلها تشعر بأنَّك كنت هنا من قبل. ربَّما تصف المكان قبل أن تراه. وهو ما يسبب لك حيرة. كيف فعلت هذا؟ ربَّما تسمع أغنية تشعر بأنَّكَ قد سمعتَها من قبلُ مئات المرَّات. تمسُّ روحكَ، ولحنها يمتزج بذراتك. الأكثر حيرة من هذا يكون مع الأشخاص؛ أرواحكما التي تعرف بعضها قبل أن تتكلما. وتسعد ما أن ترى الآخر؛ سعادة وفرحة وتحليق تشعر بهما في روحك مع هذ الشخص الذي لم تعرفه من قبل.

تختلط حالة الديجافو مع حالة الحلم. بعض الأحلام تشعر بها حقيقية أكثر من اللازم. الأصوات والطعم والرائحة. حالة الإشباع التي تحتويك بعد الاستيقاظ لا تفسير مريح لها. ربَّما هو انعكاس لموقف حقيقي قد عشتَهُ من قبل وظلَّ مختبئًا داخلك. لم يُمحَ، أو يَزُلْ. وظهر جليًا في هذ الحلم كأنَّه استدعاءٌ لشيء قديم قد مررت به من قبل).

2

الأمطار العاتية الثقيلة. كانت أمامي تبدو حزينة، مرهقة. تحاول أن ترحل فأتمسك ببعض دفئها المنساب. أداري السيجارة المشتعلة داخل

كفي. والمياه تنساب حولها محاولة إطفاءها. قطار الضواحي يلوح من بعيد. المحطة خالية، ونصف مظلمة.

أحاول تذكر ما كنتُ أنوي إخبارها به، فلا أستطيع. فقط أواصل الاقتراب من هالتها الخافتة تحت المطر، فتواصل تراجعها للخلف. فأستمر في اقترابي ومحاولة تذكر ما كنتُ أريد قوله. كنتُ أريد طمأنتها، وإخبارها بأنِّي موجود. تستطيع إلقاء ما تريد على كتفي ببساطة.

تتكلم؛ لكن حضورها الطاغي يجعلني لا أسمع، أو أسمع ولا أعي. تعيد التطلع حولها باحثة عن مكان لتقي نفسها من المطر؛ لكن صوت القطار القادم يدفعها للانتظار تحت الماء المنهمر. تمدُّ يدها صامتة بولاعة بيضاء صغيرة، أتناولها منها بآلية، ولا أنطق. أنظر فيها محاولًا تذكر إن كانتْ تخصُّني أم لا! بالتأكيد أفسدها المطر. حاولتُ النطق لكني فشلت. أشعر بلهب السيجارة في باطن يدي شبه المغلقة؛ كيف لم تُبلل وتنطفئ؟!

تبحث في جيوبها بعصبية، ثم تخرج منها ولاعة بيضاء صغيرة. تمدُّ لي يدها، فأتناولها منها بصمت. شعرتُ بأنَّ المشهد مكرر، بحثتُ عن الولاعة الأولى التي تناولتها منها لتوي فلم أجدها. ربَّما لم يكن هناك ولاعة أولى. وأنا أتخيل: دي جا فو تحت المطر. ابتسمتُ بركن فمي. فابتسمتْ هي أيضًا كأنَّها فهمتْ ما فكرتُ فيه. يقترب القطار، فتدنو هي من حافة الرصيف.

(تقول الأسطورة بأنَّ الولاعة الجيدة هي التي تشتعل في المرة الثانية، لا الأولى. يجب أن تسمع تكتها مرتين قبل أن يتراقص لهبها، لذلك عند

شرائك لولاعة يجب أن تجربها أولًا؛ إن اشتعلتْ في المرة الأولى، لتعطها فرصة أخرى. وتحاول معها من جديد، يجب أن تخفق مرة، وتنجح في الثانية، إن فعلتَ هذا لتأخذها، وإن كان يوم سعدك، ستلمح الولاعة في المحلِّ القديم، ستشعر بأنَّها هي. سيلفتُ نظرك لونها الهادئ المريح. ستشير للرجل إليها. سيتناولها، ويقوم بمسحها في صدره بحنان، يناولك إياها، ستمسكها وتقلبها في يدك. ثم... تك.. تك ليخرج لك لهبها متراقصًا. ستدفع فيها للرجل ما يطلبه، لن تناقشه، ولن تناوله إياها ثانية ليضعها لك في علبتها. ستظلُّ ممسكًا بها، ولن تتركها ثانية قط).

3

لم تمطر اليوم، اكتفتْ بأمطار الأيام السابقة. لكنَّ البرد كان شديدًا. تلفُّ وشاحها الجميل حول عنقها، تضع حقيبتها بلا مبالاة على المنضدة الصغيرة، تبتسم ابتسامتها المشرقة وهي تجلس، تمدُّ يدها لتخلع عن عنقي وشاحي الأسود الطويل؛ (كدا هاتبرد).

أبتسم فتبتسم وهي تتمسك بوشاحها الملون. (طب وانتي؟). فتهز رأسها بدلال وتقول (تؤ). تتناول من أمامي زجاجتي، وتتناول منها رشفة سريعة قبل أن تبعدها (ساقعة)، فأواصل الابتسام. تطلب فنجان من القهوة؛ على الرغم من عدم حبِّها للقهوة. تخرج علبة سجائرها، وتشعل منها واحدة بولاعتها البيضاء الأنيقة.

كان المكان عبقًا بالدخان، خافت الضوء، هادئًا وخاليًا كأنَّه خُلق لنا. حولنـا تدوِّى خافتة الأغنية التي لا تنتهـي. تحكي قصة فندق قديم؛ ربَّما لا وجود له.

أنظر من النافذة جانبها فألمح القمر الكبير، بين السحب الداكنة المتقطعة. أهمس لها (ليلة مذءوبين) فتنظر وتفتح فمها الصغير الجميل كأنَّها تهمُّ بعضي، فأكشف لها رقبتي مستسلمًا، وأنا أغمض عينيّ. أفتحها ثانية فأجدها غير موجـودة. المنضدة خالية ولا أثر لها، أتطلـع حولي. المكان هادئ وخالٍ. ولا وجود لها.

كانت تمطر. زخات المطر تضرب زجاج النافذة المغلقة جانبي. المكان دافئ وخافت الإضاءة. واللحن يسحبني لسماوات بعيدة. أطفئ سيجارتي وأنا أتناول واحدة جديدة لأشعلها. بدأتُ في شرب الزجاجة الثانية. أفاجئ بها أمام المنضدة تبتسم. تضع حقيبتها، وتجلس. تخلع وشاحها، فتبدو رقبتها الطويلـة ممتدة لأعلى. تأملتُهـا قليلًا مُبتلعًا أفكارًا عنهـا. كأنَّها لاحظتْ، فمدَّتْ يدها تعدِّلُ ياقة قميصها شـبه المفتوح. ضممتُ وشاحي الأسود حول عنقي.

تنظـر من النافذة تلمـح البدر الكبير، تقترب منـي فأغرق في عطرها المتصاعد، تهمس بصوت مبحوح (ليلة مذءوبين).

تواصل اقترابها مني، تدنو من رقبتي، تفتح فمها قليلًا كأنَّها تهمُّ بعضِّي فأغرق في دوامة عطرها وهالة شعرها المنسدل أمام عينيّ. أغمضهما مستسلمًا

لها، متمنيًا أن تقوم بعضي بالفعل. أشعر فجأة بهواء بارد يضرب وجهي، فأفتح عينيّ؛ لأجد أنها ليستْ موجودة. النافذة نصف مفتوحة، والزجاجة الثانية شبه فارغة، وعلى فوهتها أثر خفيف لطلاء شفتيها الوردي المثير. أتناول الزجاجة وأضع فمي عليها من أعلى، أحس بطعم شفتيها، أغمض عيني لأذوب.

توقف المطر منذ قليل، تبقَّتْ بعض القطرات عالقة بالهواء، يجلبها ويدخل من النافذة غير المغلقة جيدًا جانبي. رائحة المطر، والكهرباء الخفيَّة التي تظلُّ بالجوِّ بعد توقف الأمطار. فكَّرتُ بأنها تأخرَتْ. كانتْ الإضاءة خافتة، وموسيقى بعيدة مألوفة لا تُسمع تنبض في المكان. وجدتُها أمامي فجأة تبتسم بدفء، وتجلس بجواري مباشرة. عطرها يختلط برائحة المطر المتسربة من الخارج. تقترب من أذني لتهمس: (وحشتني). أمسكتُ كفَّها الصغير، كان دافئًا. رفعتُه أمام وجهي وقبلتُه.

(ليلة مذءوبين)؛ قالتْ وهي تنظر من النافذة جانبنا للقمر الكبير بين الغيوم. ابتسمتْ وهي تفتح فمها وتقترب من رقبتي. لامستْ شفتاها شحمة أذني. همستْ: (أعضك) فهززتُ رأسي وأنا أغمض عيني، شعرتُ بعطرها يتسرب، فكرتُ أنَّها قد تكون ابتعدتْ. ظللتُ مغمضًا قليلًا. قبل أن أفتح عيني؛ لكنَّها لم تكن هناك، كان حول عنقي وشاحها الملون، ويفوح منه ببطء عطرها المبتعد. ضممته حول رقبتي جيدًا. وأنا أبحث عن وشاحي الأسود؛ لكنه اختفى.

تطلعتُ حولي؛ لأطلب الحساب. لكن الرجل ذو البذلة السوداء الأنيقة يقترب مني، ليخبرني بأنَّ هذا المكان معدٌّ فقط للدخول ولا رحيل منه. أتنبه للأغنية التي تعلو حولي، أتطلع في المكان لأتأكد من رحيلها -إن كانتْ موجودة حقًّا- فلا أجدها. أنظر للرجل ثانية وأبتسم.

مراسم حرق القميص

تطويني الشـوارع وأطويها، تأخذني خطواتي للَّامكان. أحاول الفرار من السـيارات المسرعة، وأعمدة الإضاءة المزعجة. أدخل مقهاي القديم لأجلس. دخان الشيشة يُضبب الرؤية، ويتراكم في الهواء الراكد. القهوجي المسنُّ يضحك وهو يروي لي نكتةً بذيئة. أراهُ ولا أسمع ما يقول.

أضواء السيارات المُقبلة تُعمي عينيّ. أحاول الإسراع في سيري المتخبِّط، أصل للمكان فأجده قد أغلق، أقف أمامه مشتتًا. يقولون أن سكان الحيِّ قد اشتكوا من وجود مثل هذا المقهى الجديد هنا في حيهم الهادئ. أمدُّ يدي لأخـرج هاتفي لأكلمها وأخبرها؛ لا أجده. جيبي خالٍ. والظلام يقبض على السـماء فوقي. لا أحد هناك؛ فقط سـيارات مسرعة بكشافات تُعمي الأبصار. أواصل سـيري المتعثِّر. ألتفتُ خلفي لأجد السيارة الكاديلاك

السـوداء تمرُّ مسرعةً جانبي، تتركني حيث لا أدري أين أنا، أقف لأتطلع حولي. المدينة القبيحة ذات الضجيج المتصاعد.

تقودني قدمـاي لمقهاي القديم من جديد، أجد نفسي جالسـا داخله. الإضـاءة خافتـة. والراديـو المُعلـق لا يبثُّ شـيئًا؛ فقط وشـيش خافت كموج البحر. يرفض القهوجي أن يُنزل لي شيشـتي. يتطلع إليّ بهلع وهو يشـير بأنَّ هناك خطًّا أحمر يسـيل من أنفي؛ أتحسسه بفزع. أشعر بالدفء واللزوجة، أمسـحه بيدي محرجًا، فيعطيني منديـلًا مفرودًا. أنظر له غير قادرٍ على الكلام.

يدور المقهى بي ببطء، يلف حـولي وألفُّ معه، يقترب مني القهوجي بملامحـه الطيبة ليربتَ على كتفـي فأنتفض. أصرُّ على إحضار الشيشـة؛ فيحضرها مترددًا. أمسـكها مسرعًا، وأسـحب نفسًـا طويلًا، أشعر معه بالطعم اللاذع الصـدئ، لأنفث بعدها دخانًا أحمر قانيًا. الرغبة في القيء والهروب من المكان؛ لكنِّي لا أجد قدمي. الدوار، والستار الداكن الذي يهبط ببطء من أعلى ليغمرني كلي. القهوة مُرة؛ ما أن تهبط جوفي حتى تبدأ في التحرك كمثقاب هائل. أشعر بمعدتي تتقلَّص، والعصارة تتصاعد لتغمر شفتيَّ؛ حمراء هي الأخرى. تمتزج بالدخان لتحيط بي كفقاعة هائلة. لا أرى ما وراءها، ولا أسمع أي شيء؛ فقط الوشيش المتصاعد كموج البحر.

اختفى المكان؛ لأجد نفسي أواصل هرولتي المتقطعة في شارع بأعمدة نور نصف مضاءة. السيارات تحوَّلتْ كلُّها للون الأسود. صوت موتورها مزعـج، وإطاراتُها تحفر خطًّا في الأسـفلت. أصعد فوق الرصيف محاولًا

الهرب. الأنوار العالية تحيطني، فأجد نفسي مكْبلًا فوق أرضيةٍ لزجةٍ تبتلعُني. أحـاول البحث من جديد عن هاتفي، ألمح المكان المغلق عبر بُعد. جنزير من الحديد يحيط ببابه الزجاجي، وواجهته متسخة دون لافتةٍ مُعلقة؛ ربَّما لو كان مفتوحًا لدخلته، لأنقذني من مطاردة السيارات السوداء القبيحة، ربما وجدتها هناك تنتظر بابتسامتها الوضَّاءة، وعينيها اللتين تشعان ضيًا لا مثيل له. تميل برأسها وهي تبتسم؛ لأمسك كفَّها بعدها وأهوي في سماوات من عطرها المتصاعد.

أنتفضُ على نفير السـيارات العالي. الـدوار لازال يتصاعد. لا أملك هاتفًا لأكلم أحدًا ليقلني من هنا. نقودي تحوَّلَتْ لأوراق ملوَّنة، وقطع من الـورق المتناثر. أفكُّ أزرار قميصي لأتنفس، يطبق على صدري، ويكبلني كدرع من حديد. أتحسـس رقبتي وأعلى صدري، أبحث عن هواء حولي. أنفاسي متقطعة لاهثة، والرؤية مُضببة أمام عيني.

يربتُ عليّ القهوجي من جديد، فأنتفض لأجد المكان حولي يسبح في سـحب من دخاني الأحمر. فمي يسـيل، والطعم اللزج يتناثر عبر شفتي. أرتعش، والعرق البارد ينبتُ ليغمرني. أفكُّ أزار القميص العلوية، وأعيد طيَّ الكمِّ المتهدل. يصطبغ هو الآخر باللون القاني، أشعر بثقله على كتفيَّ، وحرارته المتصاعدة. أتحسسـه بيد مهتزَّةٍ وأصابع مضطربة؛ كان شـائكًا كالإكليل الذي ألبسوه للمسيح قبل صلبه.

أواصل التحسـس ليتصاعد الألـمُ عبر كفي، أشـعر بالدُّخان يتجمَّعُ حولي سميكًا كالوسادة. يحيط بي، ويصنع حائلًا بين كفي، وبين القميص الشائك.

تبتلعني السحابة المحيطة لأهوى في دوَّامة تصيبني بغثيان ورغبة في القيء لا تتوقف. تميدُ الأرض، وتميل لأهوى منزلقًا عليها. يبدأ من حولي المطر في الهطول. جو بارد وهواء لاسع. يبتلُّ القميص؛ ليسيل لونه القاني فوق جسدي. يصبح أكثر ثقلًا، والتصاقًا بي. يحيطني ويجثمُ على صدري بثقل لا أتحمَّلُه. أحاول السير من جديد. المطرُ يصنع بركًا من الماء على الأرض. تمرُّ السيارات فتتناثر المياه عليّ. أحدهم يخرج طرف رأسه من الزجاج نصف المفتوح. يسبني لأبتعد عن الطريق. تمتلئ لحيتي بالماء، أتحسسها لأقوم بنزعها من على وجهي. أنظر لها قليلًا قبل أن أطوِّحَها بعيدًا لتدهسها نفسُ السيارة السوداء التي تطاردني منذ زمن. أحاول فكَّ باقي أزرار القميص، لكن المطر يزداد ضراوة، والبرق يلمع من بعيد ليدوي الرَّعدُ بعدها مفجِّرًا زجاج نوافذ الشارع كلِّه. يتناثر الزجاج مختلطًا بزخَّات المطر، يتساقط بدويٍّ محببٍ على الأرض. أخاف أن تأتي الآن. الزجاج يملأ المكان، وهي هشَّة؛ ربَّما تأتي وتسير فوقه دون أن تُجرح. طيف جميل نزل من السماء ليعيد إليّ إيماني. ألمحُها عبر المطر، فأبتسمُ غير مصدِّقٍ، ثمَّ أبدأ بالعدو نحوها. تنظر لي كأنَّها لا تعرفني. نظراتها مُشتتة حائرة. أقترب منها لأخلع قميصي وأضعه على رأسها المبتل. تنتفض وتتطلع إليّ عبر ماء وجهها الذي لا أعلم إن كان مطرًا أم دموعًا. أفرده فوق رأسها ليقيها المطر الجارف. كنتُ أرتجف وأنتفض وأنا أبحث عن فمي. الكلمات تتآكل قبل أن تخرج. انتفضتْ هي من جديد عندما أمسكتُ بكفِّها الصغير، تراجعتْ للوراء تاركةً القميص يغطِّي وجهها تمامًا. تتحسسه بكلتا يديها، تمسح به

وجههـا الجميل. كانتْ تنتحب؛ ربَّما بردًا، وربَّما بكاءًا. واصلَتْ تراجعها من جديد عبر الماء الذي يغمر الأسفلت، مدَّتْ يدها لتزيح طرف القميص عن عينيها، رموشـها المبتلة. عيناها اللتان تبرقان وتلمعان. تراجعتُ أنا أيضًا للوراء؛ لأتمكن من رؤية محيطها كلِّه. من أعلاها لأسفلها.

كان الطريق خاليًا. رحلَت المدينة، ولم تترك لنا سوى ذلك الشارع الذي يحتوينا. تحسست الأرض خلفها قبل أن تتوقف في منتصف الطريق، رفعتْ رأسها لأعلى وهي تواصل إزاحة القميص من على وجهها لتتركه يهوى على كتفيها. يُطَيّر الهواء طرفه خلفها فتبدو كبطل أسطوريٍّ من أبطال القصص. ترفع رأسها لأعلى وهي تحتضن صدرها بذراعيها؛ لتمسك ياقة القميص الذي يحتويها. ينتفخ فجأةً من دفقة هواء قويَّة، يسـيل شعرها على وجهها مبتلًا جميلًا؛ والقميص يواصل انتفاخه وارتفاعه خلفها ويسـحبها قليلًا للوراء قبل أن تبرق السماء فجأةً، وتبرق حبَّاتُ المطر المتناثرة؛ ليدوِّي انفجار الرعد مُخلِّفًا سُحبًا حمراء قانيةً حولنا. يشتعل القميص حولها بلهب متصاعد مُحيطًا بها هالة وضَّاءة ساحرة. يتراقصُ اللهب تحت المطر المتساقط دون أن ينطفئ، يتصاعد اللهـب ليُعمي عينيَّ؛ أجفل لثوانٍ مغمضًا قبل أنْ أعيد التطلُّع ثانية لأجد القميص يهوى وحده مكوَّمًا على الأرض دون أن تكون موجودة. يتآكل القميص مخلِّفًا خيوطًا متناثرة محترقة ورمادًا متطايرًا.

يربتُ عليّ الرجل من جديد. فأشـعر بأصابعه الباردة تلمس جلدي، أنتفض لأجد نفسي عاري الجزع. الدخان يسيل مني قانيًا، ورائحة حريق تزكم أنفي. أرى الرجل يسكبُ كوبًا من الماء على قميصي المشتعل أرضًا.

كان المقهى لازال يدور بي. الأرض تميدُ فلا أقدر على الوقوف. الرجل ينظر لي بتحسرٍ غير فاهم لما يحدث. سكتَ وشيشُ الراديو؛ ليحلَّ محلَّه ضجيجٌ مزعج مؤلم. أقف بصعوبةٍ مترنحًا، أتقدم من الباب المُضبب الذي لا أراه جيدًا. أسمعهم ينادون. لا ألتفتُ وأخرج للشارع الصغير الخالي. كان القمر بدرًا. يبدو عبر ثغرات البيوت فضيًّا كبيرًا. أتحسس صدري العاري ورقبتي، أبدأ في العدو قبل أن أقفز عاليًا لأعوي فوق المدينة الكابية التي تستعدُّ للنوم.

أسانسير يأخذك للسمـاء

1

كالعادة يأخذ مني زياد المفاتيح ليسبقني للأسانسير. أتركها له وأنا أحاول أن أسرع خلف خطواته السريعة. يفتح باب الأسانسير القديم وينتظرني على بابه الحديدي الثقيل، أسرع وأسند الباب؛ ليدخل وأدخل خلفه.

يمرر المفتاح البلاستيكي الأزرق أمام اللوحة ويتوقف فجأة دون أن يضغط على رقم الطابق. سألته وأنا أنظر له «فيه إيه؟». لا يرد. ينظر لي وللوحة تسجيل الأرقام بحيرة. أتطلع فيها؛ لأجد أن رقم 6 شبه ممسوح. قمتُ بالضغط على الزر الذي أعرف مكانه. وقلتُ له «تلاقي حد مسحه. معلش». فيهمهم بما لا أفهمه. لم أهتم. كنتُ متعبًا، ولا أريد سوى الصعود للبيت.

2

- بابا..
- نعم
- هو لو الزرار رقم ستة مكنش موجود، كنا هانعمل إيه؟
- كنا هانطلع الدور السابع وننزل على رجلنا دور.

ينظر لي بعدم اقتناع. ويقوم بالضغط على الزر الذي عرف مكانه مني بالأمس. ببطء يُغلق الباب، ويصعد الأسانسير بحركة آلية مهتزَّة لأعلى. عيناه معلقتان على لوحة إظهار أرقام الطوابق يمين الباب. يعدُّ معها الأرقام بصوتٍ لاهثٍ صغير، يتوقف عند الرقم ستة فيفتح الباب ببطء ليخرج مترددًا.

3

كانت معظم الأرقام ممسوحة تلك المرة. أنظر أنا وزياد إليها في حيرة. لكنِّي أحاول طمأنته، بأنَّ أحد الناس المزعجة قد فعل ذلك.

أتركه يضغط على الزر دون أن أتابعه، يرتج الأسانسير المتهالك قليلًا بعد إغلاق الباب ويصعد ببطء شديد. التصق بي زياد فربتُّ على كتفيه وأنا أضمُّه نحوي. كانت اللوحة ترتعش، وتهتز إضاءتها وتظهر أرقام عشوائية مختلفة. صوت تنفسه ولهاثه الصغير يصل لأذني فأضمُّه بقوَّةٍ أكبر. ارتعشت الإضاءة كلها قليلًا؛ والأسانسير يتوقف ببطء شديد جدًّا قبل أن يُفتح الباب ليواجهنا طابق غريب غير طابقنا.

شـعرتُ به ينتفض جانبي ويلتصق بي وصـوت لهاثه يعلو أكثر. أكاد أشـعر بدقات قلبه الصغير تعلو بجنون. أنفاسي أنا الآخر تتلاحق محاولًا السيطرة على توتري. أمسكتُ بكتفيه بقوَّةٍ وأنا أخرج بنصف رأسي لأنظر حولي.

كان طابقًـا غريبًا لم نره من قبل، طابقًـا ليس موجودًا في العمارة كلها؛ واسعًا وبه نافذة كبيرة مغلقة بالأمام، تحجب ضوء الشمس القوي بالخارج، ولا يوجد به أيُّ أبواب أخرى. طابق بلا شقق.

أردتُ الخروج لكنَّه تشبَّث بي متسمِّرًا مكانه بالداخل. حاولتُ الكلام، وطمأنته؛ لكني لم أجد فمي. كان التوتر يجعلني أرتعش، وعصارة معدتي تتصاعد وتهدر بلا توقف. واصلتُ تربيتي المجنون عليه وأنا أقف مكاني في المنتصف بين الداخل والخارج، أواصل تأمل المكان. الصمت الشديد الذي يغلف كلَّ شيءٍ. انقطعتْ أصوات العمارة الصاخبة، وساد السكون تمامًا.

فكَّرتُ في الخروج وتركه بالأسانسير، لكنِّي تراجعتُ فورًا. لن أتركه وحده هناك. ولن أخرجه معي في ذلك المكان الغريب، لا أدري ماذا هناك، ولن أتركه يواجه هذا معي.

ألقيتُ نظرة أخيرة على المكان حولي قبل أن أستسلم لجذب زياد المتواصل وأرجع لداخل الأسانسـير، وأحمله ضامًّا إياه في صدري. تطلعنا للأزرار معًا. قبل أن نقوم بعدها من أسـفل ونتوقف عند الزر السادس، وأضغط عليه بيد مرتعشة.

4

لم نتكلم في الموضوع سويًّا، أو نعلق عليه، أو نحكيه لأحد. ظلَّ واجمًا بعد أن هبطنا، مُشتتًا وعيناه تسبحان في الفراغ حوله. ظللتُ منتظرًا أن يسألني كما يفعل دومًا؛ لكنه لم يفعل. تجاهلت أنا أيضًا ما حدث، أو حاولتُ تجاهله دون أن أحاول فتح الموضوع معه؛ لأنني لا أملك تفسيرًا، وأي كذبة سأقصُّها ستبدو ساذجةً جدًّا لن تقنعه بأيِّ شيء. أخذتُ أفكر في أيِّ شيءٍ أقوله له محاولًا البحث عن سبب يقنعه بما حدث، فلم أجد. لم يتكلم معي طوال اليوم كأنما يعفيني من الإحراج، فقط عيناه تتابعاني من بعيد.

ظلَّ ما حدث سرنا الصغير حتى اليوم التالي. عندما وصلنا أمام مدخل العمارة. ودخلنا ببطء لنتوقف أمام الأسانسير ذي الباب الحديدي المزخرف؛ شعرتُ بأصابعه الصغيرة تتوتر في كفي وإن كان يقفز بحماس غريب.

شدَّني من كمِّي لأنظر إليه، وهمس لي: «هنروح المشوار بتاعنا تاني النهاردة؟» كانتْ عيناه تشعَّانِ إثارةً وفضولًا. لم أجد ما أعلِّق به، فصمت وأنا أتأمل النقوش على الباب أمامي.

ضغط هو زر طلب الأسانسير وظل يتقافز جانبي. عندما جاء من الخارج جارنا الذي يسكن في الشقة المقابلة. كان يحمل الكثير من الأشياء. ألقى تحيَّة سريعة لي ولزياد وتوقف يلهث جانبنا. انطفأ زياد فجأة، نظرتُ له فرأيتُ الحماس كلَّه يذوي في عينيه. كانت نظرته لي مرتبكة؛ كأنما يخشى أن يكشف أحد ذلك السر. فكرتُ بأن أخبره أنَّه ربَّما كان الجميع على علم بما يحدث دون أن يتكلم أحد؛ لكني تراجعتُ، فلن يفهم ما أقول.

جاء الأسانسير، فتحتُ الباب وسمحتُ لجارنا بالدخول قبلنا. ظلَّ زياد ممسكًا يدي بتوتر لا يريد الدخول. فهمتُ أنَّه يريد للرجل الصعود وحده، ثم نصعد نحن؛ لكني قمتُ بالدخول جانب الرجل ساحبًا زياد عنوة للداخل. كان يزوم بصوته الصغير قارصًا بشدَّة على أصابع يدي. نظرتُ للوحة وحددتُ الزر وضغطتُ عليه. لم يلاحظ الرجل أن الأرقام قد مُسحتْ، صعد الأسانسير بهدوء وتوقف مباشرة في الطابق السادس دون مغامرات وفُتح الباب. خرج الرجل قبلنا بسرعة، وقام بإسناد الباب بقدمه كي نخرج خلفه. شعرتُ بإحباط زياد يتصاعد، أراد سحب كفِّه الصغير من يدي؛ لكني أمسكتُ به جيدًا وأخرجتُه بصعوبة للخارج.

ما أن خرجنا حتى انغلق الباب وحده وصعد لأعلى. نظرتُ لعينيّ زياد المعلقتين على أعلى الباب المغلق وهو يتابع الأسانسير في صعوده للأعلى، وربتُّ على كتفيه الصغيرين دون كلام، فانتفض.

في الحقيقة كنتُ مرتاحًا بعض الشيء لما حدث الآن، كنتُ متوترًا لا زلتُ، ولا أجد أي تفسير. سار زياد أمامي لباب البيت محبطًا، يجرُّ خلفه قدميه جرًّا.

5

كان اليوم ممطرًا، عاصفًا. دخلنا بسرعة أنا وزياد لمدخل العمارة الجاف مبللين يلفنا البرد من كلِّ جانب. الجوُّ بارد، والسماء داكنة. توقفتُ لأمسح له شعره ووجهه المبلل وأبتسم. كانتْ عيناه تغيبان في الفراغ. يتطلع للأسانسير بنظرة خفيَّة من بعيد.

كان المدخل هادئًـا؛ نصف مظلم. اقتربنا ببطء وقام هو بالضغط على زر طلب الأسانسـير. ظلَّ صامتًا لا ينطق حتى نزل الأسانسير من أعلى. فتحتُ الباب متحاشـيًا النظر له. لكنَّه شدَّ كمي دون أن يتقدم للداخل. نظرتُ إليه؛ كانت عيناه مملوءتين بمئات الكلمات. لم يقلْ سوى:

- بابا.. لو سمحت..

أفكر قليلًا، وأنا أغرق في نظرة عينيه المُترجية.

- أنت فاكر الزرار اللي ضغطت عليه؟

- آه.. يرد بحماس الكون كله.

ندخل معًا للداخل. يُغلق الباب خلفنا بهدوء ويمدُّ هو يده بثقةٍ ليضغط زرًّا لم أره من قبل. يتصاعد صوت تنفسه السريع. ومعه يزداد توتر وعرق كفه الصغير داخل كفي.

يرتجُّ الأسانسير وهو يصعد ببطء شديد كالمرة السابقة. تتقطع الإضاءة حولنا، والارتجاج يتواصل بشدَّة. كنتُ متوترًا، خائفًا، لا أعلم كيف وافقتُه على هذا. يشدُّني من كمي ثانية، فأنظر له. يترك شنطته الصغيرة، ويمدُّ لي ذراعيـه. فأترك حقيبتي بسرعة على الأرض وأنا أرفعه لأحمله، أضمه إلى صدري محيطًا ظهره بذراعيّ.

يهتزُّ الأسانسير اهتزازة أخيرة وهو يتوقف ببطء وتنطفئ أنواره كلُّها. أحاول السيطرة على تنفسي وعلى هدير معدتي، وأنا أمدُّ يدي لأدفع الباب الحديدي الثقيل.

ينفتـح الباب ببطء ليغمرنا ضوءٌ شـديدٌ أعمى عيوننا لثوانٍ. دفن هو

رأسه في صدري، وأنا أحاول وضع يدي أمام عيني لأرى ما أمامنا. ظللتُ مبهوتًا مما أرى، وهو يرفع رأسه بحذر لينظر معي. انتفض قليلًا قبل أن يلفَّ كامل ذراعيه على كتفي ورقبتي، وهو يضحك بحماس وفرحة طاغية. يشدُّني من كتفي لأتحرك للخارج.

أنظر له نظرة أخيرة. أبتسم ابتسامة واسعة تملأ وجهي كله قبل أن أخطو بحرص على السحاب المنثور أمامنا.

كبسولة الأحلام المخبأة

كان هـذا تقليدًا غربيًا تمامًا يشـبه الأفلام؛ هـذا أول ما طرأ على ذهنه وزياد يخبره باحتفال مدرسته بمرور مائة عام على تأسيسها.

«سـيصنعون آلة زمن. كبسـولة لا تُفتح إلا بعد مائـة عام أخرى، في الاحتفالية القادمة لمئوية المدرسة».

كان يحكي بحماس شديد وهو يلهث من الإثارة. تبرق عيناه الصغيرتان، وهو يشير بكفِّه الهشِّ في الهواء، يُكمل بصوت عالٍ: «سيضع كل طلاب المدرسة رسائل وهدايا للطلاب الذين سيفتحونها في الاحتفالية القادمة. سنكتب ونرسم لهم ما نريد».

«وأنت.. ماذا سـتضع؟». ينظر لأبيه باتساع عينيه المتزايد؛ «لا أدري. لم أفكر بعد».

«لتكتب لهم، لتحكِ لهم عنكَ، قم بتعريف نفسك، قم بوضع صورة كبيرة لك وأنت تلوح لهم». يبتسم وهو يسبح بنظره في فراغ الغرفة.

«لتكن الصورة بزيِّ المدرسة الحالي. أخبرهم أنَّكَ تمارس السِّباحة، وكرة السلة. سأعطيكَ صوركَ وأنتَ في حمام السِّباحة. أتعلم؟.. لو كنتُ مكانكَ لوضعتُ كرة السلة بعد أن أكتب عليها اسمي، وأمنيةً منِّي بفوز فريق المدرسة في كلِّ البطولات». يضحكُ بصوتٍ عالٍ، وهو يصفق بيديه بسعادة وحماس شديدين. «لا تخف. سأشتري لك كرة جديدة». يقولها له وهو يبتسم.

«هل تريدُ أن تضعَ شيئًا أنتَ أيضًا؟»؛ يقترب من أبيه بحماسه المتدفق وهو يسأله. فاجأه السؤال فابتسم وهو يفكر: «لا أدري.. لتقترح لي شيئًا».

يسرح زياد بعينيه وهو يتمتمُ بخفوتٍ قبل أن يعلو صوتهُ: «لتضع قصةً من قصصِكَ. سأكتب لهم وأخبرهم بأنَّكَ كاتب، وأن صورَكَ تظهر في الجرائد».

يبتسم أبيه، فيعلو صوته بفخر: «نعم. لتعطيني قصةً لك وعليها إهداءٌ لهم، وصورةً لكَ أيضًا». تلمع عينه وابتسامته تتزايد حتى تملأ وجهه.

«هل ستعجبهم؟».

«نعم. بالتأكيد. سيقرأونها ويعجبون بها؛ ربَّما ينشرونها في كتاب أيضًا».

يفكر في الموضوع وهو يتخيل أن أحدهم سيقرأ له بعد مائة عام، تعجبه الفكرة، فيواصل الابتسام بحماس. يقترب زياد منه، ويقوم باحتضانه قبل

أن يبتعـد ليُكمل وعيناه تلمعان: «لتعطيني مجموعتَكِ كلَّها. أكتب عليها إهداء لهم كما تفعل، ونضعها ليقرأوها كلَّها». يواصل الابتسام وهو يتخيل الفكرة. يفكر بأنْ يعطيه وقتها عدَّة نسخ ليضعها، حتى تُتاح قراءتها لأكبر عدد من المدرسين الذين سيفتحون الكبسولة، والتلاميذ الذين سيأخذهم الفضول للتعرف إلى والد زميلهم القديم بالمدرسة؛ وربَّما قرأها أولياء أمور الطلاب. تتسارع دقات قلبه، ويشعر بالحماس الشديد.

«اتفقنـا»؛ يقولها له بفرحـة. فيقفز حوله وهو يقـول بصوته الطفولي الجذل: «اتفقنا».

***

«هل فكرتَ ماذا سـتضع في الكبسـولة؟». تقولها سالي صديقة زياد. فينظر لها الأخير بحسمٍ وهو يقول: «نعم».

«أنا أيضًا قررتُ. سـأضع صورتي وحصانًـا مصنوعًا من الصلصال. صنعتُه بالأمس وانتهيتُ منه». يظلُّ زياد ناظرًا لها دون أن ينطق. فتُكمل: «ربَّما وضعتُ خطابًا بخطِّي. سأحكي لهم عن صداقتنا أنا وأنت». فيبتسم زياد بشـغف. «وماذا ستقولي فيه؟». «سأقول لهم أننا أصدقاء منذ الـ kg. وأننا في نفس فريق كرة السلة. سأضع صورةً لنا سويًّا في ملعب المدرسة». يواصلُ زياد الابتسام دون أن يتكلم.

تتنبه سالي لصمته، فتقترب منه وتسأله: «ما بك؟ كنتَ بالأمس متحمسًا!». يـشرد زياد ببصره ويقـول بصوتٍ خافتٍ: «أفكر في اليوم الذي سـتُفتح

فيه الكبسولة. أفكر في فضول الأولاد في ذلك اليوم وهم يستكشفون الكبسولة وما بها».

تستمع له سالي بحماس، فيكمل زياد: «أتمنَّى بشَّدة أن أكونَ موجودًا في ذلك اليوم، أن أرى فرحتهم وهم يستقبلون هدايانا، ويفحصونها. وهم يقرأون خطاباتنا لهم». تُكمل سالي بحماسة مؤيدةً صديقها: «أنا أيضًا أتمنَّى هذا. فكرتُ في هذا كثيرًا بالأمس. ولكن هل تعلم كم سنبلغ من العمر وقتها؟». يجيب زياد على الفور: «سنكون قد تخطينا المائة»؛ يبتسم بعدها، وتبتسم سالي وهما يتخيلان منظرهما بعد مائة عام.

يرنُّ الجرس حولهما معلنًا انتهاء الفسحة. ينظران لبعضهما، وتلمع أعينهما وهما يواصلان الابتسام.

***

كانتْ الكبسولة عبارة عن حجرة كبيرة من الصلب. تشبهُ الأسانسير الكبير. صُنعتْ خصيصًا في المكان الخالي بجوار حجرة الموسيقى، في آخر الممرِّ الطويل للطابق الأرضي من مبنى المدرسة. لها باب ضخم يشبه باب الخزانة السميك.

تمَّ تزيين الممر بالزينة والبالونات الملوَّنة الكبيرة. تجمَّع الطلابُ في ساحة المدرسة؛ ليبدأ الاحتفال بمئوية المدرسة.

تكلمتْ مديرة المدرسة شارحةً ما سيتمُّ، وأن الفكرة تهتمُّ في المقام الأول بالتواصل بين الأجيال. كلام كثير من مدرسين كثيرين، لم يسمع منه زياد سوى القليل. كان مشغولًا بحمل حقيبة قماشيَّة صغيرة تحوي

داخلها ما سيضعه بالكبسولة. يفتحها كل دقائق بحماس لينظر داخلها ويتأكد مما بداخلها. نسخة كتاب أبيه، وصوره التي اختارها، وخطابه الموضوع داخل مظروف ملوَّنٍ أنيق. وكرة السلة التي جعلتْ حقيبتَهُ منتفخة. كانت سالي تقف على بُعدِ خطوات منه، تحمل حقيبتَها بذراعيها الصغيرتين، تلمع عيناها، وتبتسم.

كان وكيل المدرسة يتحدث بحماس، ويطلب من الطلاب أنْ يتقدَّموا في صفوف منتظمةٍ ليضعوا ما معهم داخل الكبسولة. يتقدمون كلُّهم وهم يتكلمون ويضحكون فيما بينهم. يدخلون للكبسولة التي تشبه الغرفة الكبيرة، ويبدأون في وضع هداياهم على الرفوف الكبيرة، في جوانب الكبسولة التي كانتْ معدَّةً لاستقبال كلِّ ما معهم. ببطءٍ تمتلئ الغرفة، ويتراجع التلاميذ في صفوفهم للخلف عائدين لساحة المدرسة.

يظلُّ زياد متأخرًا يتطلع لما يحدث أمامه، يعيد فتح الحقيبة لينظر فيها ربَّما للمرَّة المائة، تخفتُ الحركة قليلًا، ويقلُّ عدد الطلاب المتواجدين حول الكبسولة. يتقدم، وتتقدم معه سالي نحو الباب الكبير المفتوح، ينتظران حتى يخفُّ الزحام، يتقدمان ليدخُلا ويدخل وراءهما تلميذان يضحكان بصوتٍ عالٍ. يتقدَّم زياد وسالي نحو آخر الغرفة المكتظة بالهدايا والحقائب المغلقة، يتخطيان الهدايا والعلب المغلفة بألوان زاهية ويقتربان من نهاية الكبسولة، بعد آخر الرفوف ثمَّة مكان صغير مختفٍ خلف زحام الأشياء. يزيحان ما به من حقائب سريعًا، ويدخلان فيه، يكوِّران جسديهما الصغيرين لكيلا يراهما أحد.

يسمعان صوت آخر الطلاب وهو يتقدم ليضع ما بيده في المكان الخالي بأول الكبسولة. يكتمان أنفاسهما، وهما يُمسكان بأيدي بعضهما بشدَّة. يغمضان أعينهما وصوت المدرس يهتف في التلاميذ بالخارج: «هل من أحد آخر؟ هل انتهى الجميع من وضع ما يحملون؟».

كان الصخب شديدًا، وصوت التلاميذ يعلو بالغناء والضحك. يتقدم المدرس من مدخل الكبسولة لينظر بفخر وسعادة للمكان الممتلئ، يظلُّ متطلعًا فيه لثوانٍ قبل أنْ يُخرجَ من جيبه مظروفًا أبيض صغيرًا، ويضعه على أول رفٍّ أمام الباب. يتراجع بعدها ليقف بين المديرة وباقي المدرسين المتجمعين بالخارج.

يسمع زياد وسالي أصوات الخارج المتداخلة وهما يواصلان كتم أنفاسهما، ويغمضان أعينهما نصف إغماضة. يعلنون بالخارج الانتهاء من وضع الهدايا المسافرة عبر الزمن، يصفق الطلاب كلُّهم بحماس وفرحة. يتقدمون إلى الباب الضخم، يغلقونه، ويحكمون لفَّ المقبض الشبيه بمقابض باب الغواصات.

بالداخل، كان الظلام دامسًا، يخرج زياد من داخل الحقيبة التي يحتضنها كشّافًا كبيرا، يضيئه لينظر لسالي بتوتر: «هل أنتِ خائفة؟». تتلاحق أنفاسهما، وعيناها تتسعان. تمدُّ يدَها لتمسكَ بكفِّ زياد الصغير وهي تهزُّ رأسها نفيًا: «سنسافر عبر الزمن، سنكون في استقبال التلاميذ وهم يفتحون الكبسولة، سنرى فرحتهم، وسنُغنِّي معهم». يبتسم زياد وهو يزيح مزيدًا من الحقائب

جانبه ليجلس، ويجلسها جواره. يضع حقيبتُه أرضًا، ويمدُّ يده ليخرج ما بها، يتطلع لصوره وهو يلوِّحُ. يحتضن سالي بذراع وهو يتناول من الداخل كتاب أبيه. ينظر له بحبٍّ ويقوم باحتضانه بذراعه الأخرى.

الغداء الأخير

عندمـا دقَّ جرسُ الباب؛ اتجهـت إليه بهدوء لأفتـح، وقبل أن أفعل تطلعتُ لزياد وهو يلعب بألعابه الصغيرة في منتصف الحجرة، ابتسـمتُ وفتحتُ الباب.

كانت زوجتي ممسكةً في يدها بزياد! تحتضنه مبتسمةً وهي تقول: (زياد محضر لك مفاجأة النهاردة). يدخلان وأنا متوقفٌ في مكاني أحاولُ أنْ أجدَ لسـاني. تقفُ هي فجأةً أمام الحجرة المفتوحة تنظر داخلها مطلقةً شهقةً، كتمتهـا بوضع كفِّها على فمِهـا. أقوم بدفع زياد سريعًـا للحجرة الثانية. يدخل سريعًا دون أن يتنبه لشيء.

تنظر لي غير فاهمة فأقول لها: (عديت على الحضانة وأنا راجع من الشغل، قولت أجيبه بدري النهاردة).

تحاشينا الكلام في الموضوع تمامًا، تعاملنا كأنهما شخصٌ واحد. تُحضر الطعام وتضعه بآلية. نظرتها مشتتة، وعيناها غائبتان بعيدًا. تجمعنا حول المنضدة. لم يجلسا جانب بعضهما. أجلستُ زياد الذي أحضرتُه جانبي، وهي أجلستَ زياد الذي أحضرَتْهُ جانبها. ينظران لبعضهما قليلًا، ويتناولان طعامهما كأن ليس هناك شيء. كأنَّهما معتادان على وجودهما سويًّا هكذا، وإن بدا في أعينهم الصغيرة قليل من الحيرة.

مئات الأفكار تتدافع في ذهني وتتعثر وتتآكل قبل أن تصل لفمي. هي أيضًا. أشعر بهذا، ولكننا صمتنا. فضَّلنا الصمت على كلام لن نفهم منه شيئًا.

متطابقان كأنهما انعكاس مرآة. الصوت والضحكات المتقطِّعة الصغيرة، والشعر الأشقر المتناثر كهالة ضوء. يلعبان سويًّا في منتصف الحجرة، يعرفان مكان ألعابهما، وأماكنهما السريَّة التي يخبئان فيها الأشياء. ابني يرتدي بيجامة زرقاء، والآخر يرتدي واحدة رصاصيَّة اللون.

انسحبتُ -ربَّما هروبًا- لأنام. أدفعُ رأسي أسفل الوسادة، أحاول أن أفكر في ذلك الوضع. وماذا سنفعل. أشعر بفتورٍ وغضب، عازمٌ على لومها على ذهابها للحضانة؛ مع علمها أنني المُكلف بإحضاره من هناك يوميًّا. هي السبب في هذا، وعليها أن تحله. عليها أن تقوم بإرجاع من أحضرَتْهُ، لا أدري كيف! ولكن عليها أن تفعل. تأخذُه في يدها وتذهب ثانية للحضانة وتقول لهم: (بابا زياد جابه قبل ما آجي بساعة، ومش عارفة مين دا).

نعم. زياد الأول هو ولدنا. لم يكن هناك غيره بالحضانة عندما كنت

هناك. لا أدري من أين أتى هذا. لا يخصني. لن أفكر، وستحل هي الموضوع كما صنَعتْه.

تنبَّهتُ فجأةً أنها دخلت الغرفة. كنتُ في مرحلة بين النوم واليقظة؛ حالة من الخدر دخلتُ فيها فنسيتُ لثوانٍ ما نحن فيه. كانتْ تمسك زياد من يده. زياد ذي البيجامة الرصاصيَّة. قالت في حسم: هاينام معانا، السرير اللي جوا مش هايكفي.

ابتعدتُ تلقائيًا لطرف السرير؛ لأفسح لهما المكان. وضعَتْه بيننا، وقامتْ بتغطيتِه والتربيت عليه بحنان. أردتُ أن أقول لها إن هذا ليس ابننا، وأن زياد ابننا وحده بالخارج. هذا ليس ولدنا. لكني نظرتُ لعينيها الدامعة، وشفتيها الراجفتين فصمتُّ. أشعر بصداعٍ عاتٍ، وشعور جارف بعدم الراحة والقلق. ماذا أفعل؟ وكيف أتصرف؟

نمتُ من الإرهاق نومًا باردًا مُتقطعًا. حلمتُ بأني استيقظتُ في الصباح، كان البيتُ ممتلئًا بأطفال كُثر، عشرات كلهم زياد. يبتسمون ويضحكون، ويلعبون مع بعضهم البعض. استيقظتُ منتفضًا. لأجد العرق البارد يغمر وجهي وصدري. كانت نائمة، محتضنة زياد النائم الوديع. دققتُ في ملامحه، واقتربت لأشمَّ رائحتِهِ الطفلة. كان هو ولدي. نفس الملامح الوادعة المستكينة. نفس أنفاسه الهادئة الحالمة.

نهضتُ من الفراش، خرجتُ بخطواتٍ مضطربةٍ للحجرة الأخرى، فتحتُ بابها ببطء ودخلتُ. كان الضوء الخافت مسكوبًا على وجهه النائم. شعرتُ بأنفاسه متقطعة غير منتظمة أو مرتاحة، اقتربتُ منه بقلق. كان

نائمًا وعـلى وجهه وفي عينيه بقايا دموع. انقبض قلبي، اندسسـتُ سريعًا جانبـه واحتضنتُه، انتفض مفتـوح العينين، حاولتُ ضمَّـه لكنَّه انتفض أكثر وابتعد للخلف. قلتُ له بلوعةٍ: (شششششـش.. ماتخافش يا حبيبي. أنا بابا). تطلع فيّ لثوانٍ قبل أن يرتمي في حضني باكيًا. ضممتُه بقَّوةٍ، مُربتًا على ظهـره الصغير. قبَّلتُ وجهه الجميل وسـط الدموع بصوته الطفولي والنشـيج: (كنت عاوز أنام جنبكو.. دخلـت لقيت التاني هو اللي نايم.. أنا زعلان).. حاولتُ تطييب خاطره. قبَّلتُه ثانية.

اعتدلتُ في جلسـتي وأجلستُه على فخذي، أرحتُ رأسه على صدري وقلـتُ له: (معلش يا حبيبـي.. أنا أهـو اللي هنـام جنبك.. معلش مش هاسيبك لغاية الصبح).

اسـتكان قليلًا وإن ظلَّ ينشـجُ ببطء إلى أن نـام. لا أدري متى نمتُ؛ لكني استيقظت على صوتها وهي تهتف: (أنت بتعمل إيه عندك؟). فتحتُ عينـيَّ أنظر إليها. احتجتُ قليلًا من الوقت لأفهم أين أنا، لم أرد. نظرتُ إليها كانتْ تمسـك في يدها بزياد الآخر، مرتديًا ملابس الحضانة وشنطته الصغـيرة في يدها. انتفضتُ واقفًا صائحًا: (إيه اللي بتعمليه انتي؟ ورايحة فين؟). واصلتْ لمَّ أشـيائهِ في شـنطته وهي تقول بحسـم: (رايحة الشغل طبعًا، وهاخد زياد في إيدي للحضانة). (طب وزياد دا؟) قلتُ في حيرة، فنظرتْ لي قليلًا دون أن ترد. هببتُ من الفراش مقتربًا منها مُكررًا: (طب ودا؟؟). أمسكتْ زياد جانبها من يده بقوَّة، قبل أن تقول وهي تتجه للباب

بسرعة: (اتصرف). وفتحَتْ باب الشـقَّة، وخرجتْ منه ساحبةً الصغير خلفها، وأغلقتْ الباب خلفها بقوَّة.

مع صوت انغلاق الباب العالي انتفض زياد جانبي صاحيًا. نظرتُ له دون أن أعرف ماذا سأفعل. كانتْ ملابس الحضانة الخاصة به مُلقاةً بإهمال على طرف فراشه منذ الأمس. فكرتُ أنْ ألبسَه إياها وآخذه للحضانة؛ لكن الآخر هناك. ماذا سأقول لهم، وكيف سأفسر الأمر؟ بالتأكيد هم يعلمون. هي أحضرتْ الآخر من هناك بالأمس بعد أن أحضرتُ أنا الأول. تنبَّهتُ لزياد وهو يحتضنني. نظرتُ إليه؛ صغير لا يفهم ما يحدث. تكلم بصوتٍ خافتٍ للغاية: (أنا خايف). ربتُّ عليه وقمت باحتضانه: (ماتخافش. أنا معاك).

صنعتُ له إفطاره، ولعبتُ معه بألعابه قليلًا. مرَّ الوقت دون أن أشعر، أو أفكر. إلى أن دقَّ جـرس الباب، فتذكرتُ، اتجهتُ ببطء لأفتح. كانتْ هي ممسكة في يدها بزياد الآخر. دخلتْ دون كلام، اتجهتْ سريعًا لغرفتنا دون أن تلقي أيَّ نظرةٍ على زياد الجالس بغرفته.

كنتُ متوترًا حائرًا كما لم أكن من قبل، توقف عقلي عن العمل، وشعرت بعجـزٍ تام عن التصرف، أو الاسـتيعاب. أغلقتُ على زيـاد باب غرفته، واتجهتُ إليها.

دخلـتُ الغرفة فنظرا إليّ كلاهما دون كلام. اقتربتُ منها، وهمسـتُ: (هنعمـل إيه؟ أنا دماغي واقفة) ظلـتْ تنظر لي دون كلام. أكملتُ تغيير ملابس الصغير أمامها قبل أن تقول بصوت هادئ أدهشـني: (مافيش..

اتـصرف أنت في اللي جبته دا. زيـاد ابننا أهو)، وقامتْ باحتضان الصغير أمامها.

انتفضتُ وقلتُ بصوتٍ عالٍ: (أتصرف في إيه بالظبط؟ إزاي.. هاعمل فيه إيه؟ ومين قالك إن دا ابننا.. ما التاني أنا جبته الأول من الحضانة، ولو أنتي مكنتيش روحتي الحضانة مكنش هايبقى فيه واحد تاني). نظرتْ في عيني بنظرة لم أفهمها، قالت كأنها لم تسمعني وبلهجة عجيبة (اتصرف.. يا إما هاتصرف أنا).

خرجتْ ساحبةً إياه خلفها للمطبخ. ذهبتُ لحجرة زياد، فتحتُ بابها ببطء، حاولتُ أن أرسـم على وجهي ابتسـامة قبل أن أدخل. كان جالسًا في منتصف الحجرة يلعب بألعابه المبعثرة. بدا أنه نسي قليلًا؛ لأنه نظر إليّ وابتسم. اتجهتُ للشباك المغلق، فتحتُه، وجلستُ جانبه، أشعلتُ سيجارة شاعرًا بالضياع.

جاءني صوتُها بعد قليل أن (الغدا خلص). لم أرد، انتهيتُ من تدخين السيجارة. ناديتُ على زياد فالتفتت إليّ بابتسامة مشرقة. أمسكتُه من يده، وقمتُ بتقبيله. خرجنا للصالة. كانت جالسة بجانبها زياد الآخر.

جلسـتُ وأجلستُه جانبي، قمت بوضع الطعام في طبقه الصغير، وفي طبقي. كانتْ تأكل دون شـهية، ونظرتُها مُعلقة بالفراغ. لم يكن لي شهيَّة؛ لكنـي أكلـتُ. كان هو يلوك طعامه ببطء. نظـرتُ للآخر جانبها قبل أن أشـعر بالموجودات تهتزُّ. فجأة سقطتْ من يدي الملعقة، وشعرتُ بظلام كثيف.

سـمعتُ بكاء وصراخ أحد الزيادين، لم أتمكن من رفع رأسي -الذي هوى بـين الأطباق- لأرى من منهما الذي يصرخ. كان آخر ما سـمعتُه، صوتها المتقطع البعيد: (يالا يا زياد بوس بابا.. سلّم عليه). شعرتُ بشفاهٍ صغيرة مبللة تقوم بتقبيل خدي، قبل أن يبتلعني ظلام له طعم صدئ.

طقوس التحوُّل إلى طائر لا اسم له

هي لا تعلم بأَنَّكَ نصف بشري تتحول في الليل لطائر لا اسم له.

تطير لبيتها. تحلِّق فوقه كثيرًا، قبل أن تستقرَّ بهدوء على شبَّاك بيتها. تقترب من النافذة المفتوحة. لتلمحها من خلف الستارة الطائرة. كانت جالسة في إضاءة خافتة تشاهد فيلمًا، متكورة في جانب من كنبتها الصغيرة. تضمُّ ركبتيها أمام صدرها. عيناها غائبتان بعيدًا. تعرف أنها لا تتفرج حقًا.

البيت أمامك هادئ تمامًا، ومظلم. تعرف أنها وحيدة في تلك الليلة. تخبئ نفسك جيدًا، وأنت تمدُّ رأسَكَ الصغير للداخل محاولًا الثبات، وعدم إصدار أيِّ صوت. تطلعتْ حولها فجأة فتراجعتَ أنت للوراء. قامتْ من مكانها، واتجهتْ ناحية المطبخ.

تطير أنتَ من مكانِكَ، وتلفُّ للناحية الأخرى. تقفُ على شباك المطبخ الصغير؛ لتلمحها وهي تصنع كوبًا من الشاي، تنتظر غليان الماء، تقوم بصبِّه، تتجه للخارج ثانية، فتطير أنتَ مرةً أخرى عائدًا للشباك الخارجي.

كانتْ قد جلستْ، وأشعلتْ سيجارة. تنفثُ دخانها أمامها لتُغبش الرؤية أمام الفيلم، كأنَّه لا يعنيها حقًا. تمسك هاتفها. تراها تقلب فيه قليلًا قبل أن تضعه ثانية جانبها، تفكر في الدخول؛ لكنَّكَ لا تعلم ما وقعُ ذلك عليها. لن تعرفك. ربَّما لو نظرَتْ في عينيكَ الصغيرتين قليلًا لعرفتك؛ لكنَّها لن تفعل. ستفزعها فقط، ولن تتمكن من تهدئتها أو إخبارها بحقيقتك، فأنت كطائر لا تتكلم. لا صوت لك.

تُطفئ سيجارتها، تضع كوب الشاي الخالي أمامها وتغلق التليفزيون، تتجـه بهدوء نحو غرفتها البعيـدة. تظلُّ واقفًا مكانكَ قليلًا. قبل أن تطير راجعًا.

هي لا تعلم أنَّكَ تتحولُ ليلًا لطائر، لا اسم له.

ربَّما لاحظتْ ذلك. تخبرُكَ عن وجهك المرهق، ولونك الشاحب، شفتيك اللتين يغمق لونهما. تعلم أنك لا تنام؛ لكنها لا تدري ما السبب. لا أحد يدري سواك. كل ما تخافه وأنتَ في طريقكَ لبيتها أن يصطادك أحد الصبية العابثين.

تذهب من جديد في اليوم التالي؛ لتحلق فوق البيت، قبل أن تهبط لتحطَّ على الشباك الخارجي، الذي ترى من خلاله البيت كله.

كانـت تجلس بالداخل وحيدةً أيضًا في تلك الليلة. رأيتَها وخمنتَ أنَّها كانتْ تبكي، شعرتَ بقلبِكَ الصغير ينتفض، وشعرتَ بعجزِكَ عن التواجد معها. ستدخل لتمسح لها دموعها؛ لتأخذها في حضنك. لتكون معها كما ينبغي أنْ يكون. تزيح طرف الستارة؛ لتراها أوضح. تلتفتُ لتراك، تنتفض مكانها، تجفل أنتَ مكانكَ، وتطير بسرعة مبتعدًا. تراها من بعيد وهي تزيح الستارة، وتنظر في الفراغ. تمسحُ دموعها، وتعيد التطلع؛ لكنَّكَ ابتعْدتَ، خِفْتَ من أن تخيفها فابتعدت.

لم تحكـي لك ما حدث. وأنتَ لم تخبرها بأنَّـكَ تعلم أنَّها كانتْ تبكي. هي لا تعلم أنَّكَ ليلًا تتحول لطائر لا تعلم له اسمًا. كل ما تخشاهُ وأنتَ في طريقكَ لبيتها أن يتمَّ اصطيادُك، أن تخترقك رصاصةٌ لن تعلم ما مصدرُها. ستسمع صوتها سريعًا قبل أن يُظلمَ كلُّ شيء. ستختفي سريعًا، ولن يجَدك أحد؛ ربَّما سيبحث عنك الكثيرون. ستنتشر صورتَكَ على الفيس بوك مع مناشـداتٍ للبحث. هي سـتحزن، ولن تفهم ما سرّ الغياب. ستظنُّك قد تركتَها وذهبتَ دون وداع. لكنَّكَ هنا الآن تحاول أن تكون معها.

تقترب من مكانك اليومي، لا تلمح أي حركة بالداخل، لا تعلم أين ذهبتْ. تجلس مكانكَ منتظرًا. وكأنَّها تعلم بوجودِكَ، تعود سريعًا. تفتح باب البيت، تدخل دون أن تضيء أنوار البيت. تكتفي بالنور الخافتِ القادم من الطريق، تقوم بخلع ملابسها بسرعة.

تراها في ملابسـها الرقيقة المتبقية. تدخل لتستحم، تطير سريعًا لتقف على شباك الحمام الصغير المغلق، تسمع صوت المياه المنهمرة عليها، تشعر

بحركتها، تعود لمكانك، تخرج مبللة الشعر، مشرقة الوجه. تشعل سيجارة من ولاعتها البيضاء الصغيرة، وتقترب لتفتح الشباك قليلًا، تتجمد مكانكَ في الطـرف البعيد المظلم، تظلُّ هي متوقفة تنفث دخان سـيجارتها. تنظر للفراغ.

جميلة.. وجهها الهادئ المستكين، ونظرة عينيها التي تحوي العالم. تسحب نفسًا أخيرًا من السيجارة قبل أن تنتهي منها؛ لتلقيها أمامها. وقبل أن تدخل تشـعر بها تُلقي عليـكَ نظرة سريعة. كأنَّما كانتْ تعلـم بوجودِكَ؛ ربما قد اعتادتْ على رؤيتك، وظنَّتْ أنَّكَ تُعشش في شجرة قريبة.

في ذلك اليوم لم تتمكن من العودة لطبيعتك. وصلتَ بيتك، ودخلتَ من الشـباك المفتوح. لكنَّكَ ظللتَ كما أنـت. لا تعلم ماذا حدث؛ لكنكَ ظللـتَ هكذا. لم يخيفك الأمر، ولم تُصَـبْ بالرعب. لم تجد رغبة في البقاء حتى تعود بشريًّا، كنتَ تعلم كونك طائرًا هو ما يسمح لك بالعودة اليها مجددًا وأبدًا.

فكرت قليلًا، قبل أن تخرج من الشـباك ثانيـة مُتجهًا إليها من جديد. وصلتَ سريعًا. كان الشـبَّاك مُغلقًا، والنور مُطفأ بالداخل. جلستَ على حافة الشـبَّاك. تكورتَ حول نفسِـكَ قليلًا، استشعرتَ حضرة وجودها القريب قبل أنْ تُغمـضَ عينيكَ وتنام. في الصباح فتحتَ عينيك. محاولًا تذكر أين أنت. عندما وجدتَها بجانبِكَ مائلة بجسدها الصغير عبر النافذة المفتوحة، تتطلع إليك مبتسمة. ظللتَ مكانكَ لثوانٍ قبل أن تفرد جناحيك الصغيرين، وتطير مبتعدًا لا تعلم ماذا كان يجب أن تفعل.

تحدثتما كثيرًا عن فيلم birdman، أخبرتها بعشقِكَ له وأنَّكَ تراه تقريبًا كلَّ ليلـة، أخبرتها عن حلمك الدائـم بالطيران. تنظرُ لـكَ دون أنْ تردَّ، وتبتسم.

هي لا تعلم أنَّكَ طائر لا شبيه له ولم يسمه أحد. تطير في كلِّ ليلة لتقف على شبَّاك بيتها، وتظلُّ تتنقل من شباك للآخر. لتراها في كلِّ أنحاء البيت تمارس كلَّ شيء. تراها وتسمع صوتها، غناءها، ضحكها، همسها، بكاءها المخنوق، حديثها في الهاتف، ومع نفسها. تراها تأكل، وتخبز كعكًا صغيرًا له رائحة جميلة. ترقص، وتجري، وتنزل على عجل لأماكن بعيدة تنشر فيها بعضًا من بهجتها. تعود لتغيِّر ملابسها، وتستحم. تراها تقف أمام المرآة، تلمُّ شعرها فوق رأسها، ثم تتركه منسدلًا فوق كتفيها.

وفي كلِّ يوم كانتْ تلمحُكَ على طرف الشـبَّاك الكبير. أو على شـبَّاك المطبخ، أو غرفة النوم. تعتاد على وجودِكَ ببطء، ترى طرف منقارِكَ الصغير فتعلـم أنَّكَ هنا، وتبتسـم. تتعمد إزاحة السـتارة قليلًا؛ لتصعد أنت على طـرف النافذة، وتخطو خطوةً للداخل، وتجلـس مكانَكَ. تحاولُ ألَّا تنظر لكَ مباشرة. ألا تشـعرَكَ بعلمها أنَّكَ موجـود معها. أنت موجود، وهي تعلم؛ لكنَّها تتعامل بتجاهل خفيّ. تترك لك مسـاحة للتواجد في عالمها؛ تحاول ألا تتجاوزها كي لا تغضبها، فتقرر أن تغلق الشبَّاك أمامَكَ.

كانتْ سعيدةً بوجودِكَ، تشعر باعتيادها عليك، أصبحت تقضي معها معظم اليوم، وعندما تتأخر تجدها تنتظرُك بالنافذة المفتوحة. تراك قادمًا، فتبتسـم وتدخل تاركـةً إيَّاكَ تأخذ مكانَكَ المعتـاد. ببطء تسربت لتصبح

تفصيلةً من تفاصيل يومها. تمارس معها كلَّ طقوسها بالبيت؛ أصبحتَ تحفظ أماكن الأشياء، مواعيد أكلها، وكتبها المفضلة، لحظات فرحها، واكتئابها، ألوان ملابسها، وطريقة ترتيبها لدولابها، جلوسها ليلًا بملابسها الداخلية الفاتنة. أصبحتَ رفيق روحها، وأصبحتْ دنياك. ببطء تترك نفسك لتغمُرَكَ أشياؤها. وتترك نفسها لتحتلَّ عالمك. أريحيَّة، وسكينة، بوح خفي.

بالأمس لم تغلق باب الحمام خلفها؛ فقط اكتفت بتركه نصف مغلقٍ. كنت بدأت في الدخول للصالة، تحطُّ فوق النجفة الكبيرة، أو على أطراف الستائر. تتركُكَ تفعل هذا دون أن تنظر ناحيتك مجددًا، ودون أن يربكها وجودُكَ.

رأيتَها تعود من الخارج، تخلع ملابسها وتتجه للحمام، دخلتَ سريعًا لتقف على طرف الباب العلويّ. تضطرب قليلًا، ترتعش، وتشعر بقلبِكَ ينتفض؛ لكنَّكَ اقتربْتَ بوجهك الضئيل من الداخل. رأيتها تتجه لتقف تحت الدشِّ، تفتح المياه، وترفع رأسها لأعلى. وجهها، رقبتها، كتفيها، صدرها، جسدها كله. المياه تنهمر عليها، وتتجمع أسفل منها عاكسة نور الحمام الخافت. أغلقت المياه، وتناولت المنشفة الكبيرة، وقامتْ بلفِّها حول جسدها الهادر؛ أسكرَكَ ما رأيتَ، لا تعلم إن كانتْ رأتْكَ أم لا، هل سمحَتْ لك برؤيتها هكذا، أم لم تفكر في هذا من الأساس.

حاولت الطيران والذهاب معها لحجرتها وهي تخرج؛ لكنَّكَ لم تتمكن. انتشيتَ، وارتويتَ، وغبتَ في سماوات لم تبلغها من قبل. ظللتَ مكانَكَ ناسيًا أنَّ لكَ جناحين يمكنهما الطيران؛ لأنَّك في تلك اللحظة لم تكن بحاجة

إليهما قطُّ. كنتَ بحاجةٍ لأنْ تدخل إليها، تتخلص من هيئة الطائر؛ لتنصهر معها في كيان واحد. تعيد تشكيل الأسطورة القديمة. الجسد الواحد الذي عوقب بالانفصال. والآن يعود من جديد جسدًا واحدًا، وروحًا واحدة، وقلبًا واحدًا، وعالمًا لا يحوي سواكما.

(يُقال بأنَّه إذا قامَ طائرٌ صغير لا اسم له بتقبيلِكَ أثناء نومك، دون أن يوقظك، فسوف تتمكن أنتَ أيضًا من أن تتحول لطائرٍ صغيرٍ لا اسم له متى أردتَ ذلك. الحكاية كلُّها تكمن في أنَّكَ لن تعرف بأنَّ باستطاعتِكَ التحول لطائر؛ فقط في وقتٍ مُحدد لن تدريه، ستجد نفسكَ تقوم بفرد جناحيكَ الصغيرين خلفكَ؛ لتطير).

في تلك الليلة ذهبتَ مُتأخرًا قليلًا، اقتربت من النافذة؛ لتجد الأنوار مطفأةً. كان الشبَّاك غير مغلق جيدًا؛ لا تعلم هل هي من تركته مفتوحًا لكَ لتدخل، أم أنها كانتْ تنتظرُكَ حتى نامتْ دون أن تغلق النافذة. توقفتَ على حافتِه بهدوء قبل أن تدخل دون أن تصدر صوتًا.

كان المكان جميلًا، مُرتبًا، وتفوح منه رائحة ورود. ظللتَ تتنقل ببطء حتى وصلتَ لباب حجرتها نصف المغلق، قلبكَ يكاد يخرج من مكانه، تسمع دقاته صاخبةً تخاف أن توقظها. فتحاول أن تهدأ وتلتقط أنفاسك. تدخل الحجرة ببطء شديد وهدوء، تلمحها نائمة في طرف الفراش. شعرها منساب حول رأسها، وأنفاسها منتظمة، هادئة. تهبط لتكون جانبها، تقترب

من وجهها الفاتن، تزيح بمنقارِكَ خصلة شعرٍ، لتدنو منها أكثر، تشمُّها، وتسمع أنفاسها الخافتة. وبلمح البصر تخطف قبلةً من فمها الورديِّ الصغير، تجمد مكانَكَ بعدها حتى تتأكد من عدم استيقاظها.

تظلُّ مكانكَ قليلًا كابحًا نفسك من جديد من أن تترك هيئة الطائر لتتحول لبشري ثانية، متطلعًا فيها، متمليًا في هالة بهائها، قبل أن تسحب نفسك للخارج دون صوت عائدًا من حيث أتيتَ.

لم تخبرْكَ بأمر الطائر. هي المعتادة على إخبارك بكلِّ شيء؛ ربما لا يشغل بالها، ولا تتذكره إلا في البيت. هي لا تعلم أنَّكَ أنتَ هو ذلك الطائر الذي لا اسم له.

أنتَ تعلم أنَّ الأمر سينتهي ذاتَ ليلةٍ وأنتَ متجهٌ لبيتها. سيتم صيدُك. ربَّما لأنَّكَ غريب الشكل. سيتم ملاحظة خطِّ سيرِكَ كلَّ ليلة. وسيكون من السهل توقع مكان وجودكَ. رصاصة سريعة ستلقيكَ أرضًا. وسينتهي كلُّ شيء سريعًا.

ستفتقدُكَ. دون أن تعلم أين اختفيتَ، سيكون من المؤلم لها أن يختفي معكَ طائرُها في نفس اليوم، ربَّما اختفاؤك سينسيها اختفاء الطائر. وربَّما اختفاء الطائر سينسيها اختفاءك، ربما ستربط بينكما في خيالها، أنكما قد رحلتُما في ذات التوقيت، وتركتُماها وحيدةً. لن تربط، ولن تفكر في أنَّكَ هو الطائر.

ستنزل هي في اليوم التالي، ستُخفي آثار سهرها وحزنها بنظارتها الشمسيَّة

الكبيرة. ستبدأ شفتاها في الذبول والغمقة مثلك تمامًا. ستعبر الطريق دون أن تلحظ جثَّة الطائر الصغير القريبة من المنزل. لن تفزع لأنَّها لن تراك؛ لكنَّها إن اقتربتْ ودققتْ لرأتكَ، وعندها ستعرف أنَّكَ هو هذا الطائر، لكنها لن تفعل، لن تنظر، ولن تلحظ انتفاضتكَ الأخيرة على الأرض الباردة.

ستكمل سيرها وابتعادها. وعند خطِّ الأفق، ودون أن تلتفتَ وراءها، أو يلمحها أحد، ستفرد جناحيها لتطير بعيدًا.

ما جرى في ليلة مقمرة...

«يُقال أنَّه لا يكبر، ولا يشيخ. أذكره منذ كنتُ في سنِّكم، ربَّما كنتُ أصغر منكم».

ينظر له الأولاد مشدوهين، عيونهم تبرق في حماس وخوف ممتزج بالفضول. فيكمل هو حكيه الذي لا ينتهي.

كان موعد جلسته السنوية. أكبر رجال القرية سنًّا. شيخٌ عجوزٌ يقترب من المائة. يجلس على مصطبته القديمة أمام باب منزله الخشبي. كان في كلِّ عام يجلس هكذا جامعًا كلَّ نساء القرية؛ لكنَّه هذا العام طلب منهن إحضار أولادهن ليحكي لهم ما لم يسمعوه من قبل. يحكي عما تداوله الناس منذ سنين، وعمَّا يُحكى دون تصريح.

«من بلغ منكم الرابعة عشر ليبقَ. وليرحل من هو أصغر سنًّا». يتلفت الأطفال حولهم بفضول ودهشة. من أتمّ السن يظلُّ جالسًا بفخر. ويقوم الباقون في تخاذلٍ وضيق. يتطلعون حولهم بأمل أنْ يقول لهم أن ينتظروا، لكنَّه يظلُّ ناظرًا إليهم بعينيه الرمادية التي لا ترى.

«هل ودعتم أمهاتكم؟».

يهمهمون جميعًا بفرح، ترحل الأمهات وهن ينتحبن. يشير هو لهن إشارةً خفيَّةً بعينه الكليلة، وتحمل الباقيات أطفالهن الصغار الذين غادروا وهن يهرولن بعيدًا عن المجلس.

في دقائق خلت الساحة الكبيرة أمام مجلس الشيخ تمامًا. ظلَّ هو صامتًا ينتظر. لا صوت سوى صوت تنفس الأطفال المتصاعد. ضوء الغروب الذي يغمرهم، وهم يفكرون فيما سيسمعونه.

لم يتركهم العجوز لخيالاتهم كثيرًا، خرج صوته المهتزُّ ليسألهم: «هل غادر الجميع؟» يهمهمون بأن نعم.

يدير رأسه حوله كأنَّما يتأكد، فيشعر بهواءٍ باردٍ يأتي من بعيد. «لتسمعوني جيدًا إذن. ما سيقال لن يقال سوى مرَّةٍ واحدة فقط. ولن تنقلوه لأحد. سيظلُّ سرًّا طيَّ صدوركم حتى تموتوا. لن تتكلموا فيه حتى مع بعضكم البعض. هل تفهمونني؟».

يهمهمون بتوتر واضح. «أنتم الآن رجالٌ. حتى قبل أنْ أخبرَكم، رجالًا كنتم، ورجالًا ستبقون».

يتحشرج صوته، فيسعل ويبصق جانبه: «ألم تسألوا أنفسكم من قبل أين آباؤكم؟ وأين ذهبوا؟».

لم يكن ينتظر منهم إجابة، لكنَّه صمت قليلًا ليتركهم ينظرون لبعضهم البعض قليلًا، قبل أن يواصل: «لماذا لم يأتِ أحدٌ منهم من سفره الطويل كما قيل لكم؟ ألم تفكروا قليلًا أنَّ أيًّا منكم لم يرَ أباه من قبل قطُّ؟». تحفزوا أمامه في جلستِهم، تبعثر نظامهم الذي كانوا يحرصون عليه دائمًا.

«أين رجال القرية؟».

«تسمعون منذ صغركم حكاية ذلك الذي لا يكبر. والذي لم يره أحدكم حقًا. فقط تعرفون أنَّه موجود من حكاياتنا عنه، ولا تعرفون سوى ما أخبرتُكُم به. حتى أمهاتكم، لا يعرفن عنه أكثر منكم. سأعيد ثانيةً ما قد تكونوا سمعتموه من قبل؛ لكنَّه مهم».

«هو موجود منذُ أنْ كنتُ في سنِّكم، ومن قبل هذا حقيقة لا أحد يستطيع أنْ يجزمَ منذ متى وهو موجود؛ لكنَّه موجود. هو لا يكبر ولا يشيخ. يتداول الأجيال عبر عمره الممتدِّ دون أن تظهر عليه علامات الزمن».

«يفعل في القرية ما يشاء. يقدمون له الطعام، والنقود، والملابس؛ بل والنساء أيضًا. قرابين لا حصر لها كانتْ توضع تحت قدميه؛ ليصرفوا شرَّه. كان يفعل ما يشاء في القرية والقرى المجاورة. هو لا يبتعد كثيرًا. وإن كان نفوذه يمتدُّ بعيدًا حقًّا».

«جلستُ مثلكم هكذا في يوم بعيد جدًّا، لازلتُ أذكره كما الأمس؛ لأسمع السرَّ. كان هناك رجلٌ مثلي، شيخٌ عجوزٌ هو من يحكي لنا كل ما حكيتُه لكم. أخبرنا أن ثمَّة شيخًا آخر أخبره بالحكاية وهو في مثل سننا آنذاك. اختاره الشيخ ليحلَّ محلَّه ذات يوم، كما اختارني الشيخ لأحلَّ محلَّه في يوم محدد. وسأختار أحدكم ليحلَّ محلي في يومٍ من الأيام؛ ربما اليوم

وربما فيما بعد». صمت ليستمع لصمتهم الطويل، يشعر بالحيرة تتدفق من تنفسهم المتسارع.

«هل تفهمون شيئًا؟» يسألهم بصوته المهتزِّ.

همهمتهم النافية جعلتَّهُ يبتسم بشفاهه المتشققة الجافة. «حسنًا، لا يهم. ستفهمون حالًا كلَّ ما أودُّ أنْ أقوله».

«يُقال من ضمن ما يُقال. بأنَّ الأمر قد بدأ بأن الذي لا يكبر اختار وقتًا قمريًا مُعينًا».

«ليلة مقمرة، كانت فيها كلُّ نسوةِ القرية خاليات البطن، لم تكن فيهن ولا حبلى واحدة. وجمع رجالهن وأرسلهن بعيدًا دون أن تدري واحدة أين ذهب زوجها».

«كانت ليلة صيفيَّة، باردة الهواء. القمر يضيء السماء ويتسلل لفرشهن الخالية. عندما ظهر لهن كلهن في نفس الوقت تقريبًا. جميعهن أجمعن أن ما تمَّ قد تمَّ في ذات الوقت. فجأةً وجدوه أمامهن، أمام فراش نومِهن الخالي. وقام بمُضاجعتهن جميعًا مُضاجعة الأزواج؛ مُضاجعة مُشبعة طويلة امتدت من منتصف الليل حتى بعد الفجر. لم يقم من على أيِّ واحدة منهن إلا وكانتْ قد حبلتْ منه. لم ترفضه إحداهن، حتى بينها وبين نفسها. ذقن جميعًا ما لم يذقنه من قبل. يُقال بأنَّ ذكره لا مثيل له. لا أنثى مهما كانتْ قادرة على احتوائه. تصاعدتْ أصواتُهن جميعًا تشق حارات القرية كلها، وتدوِّي في الليل. من مسِّها، لم يمسها ثانية، كما كانتْ عادتُه. ولم تترك هي ذكرًا آخر يمسُّها. لم يكن هناك ذكورًا آخرين. كانتْ مضاجعة العمر كلِّه، ظلَّتْ أعضاؤهن مرويَّةً شبعى، لم يشعرن بشهوة بعدها أبدًا».

«بعد تسعة أشهر تامة، وضعتْ كلُّ نسوةِ الحيِّ أطفالًا لهم أب واحد».
«الغريب بعدها أن جميع النسوة قد جمعن أنفسهن، وذهبن إليه في خلوته أعلى الجبل. طلبن منه برجاء حار أن يغير قانونه الذي استنه. كن يتقاطرن شهوة من رؤيته أمامهن عاري الجذع، يتربع على دكته أمام عريشته الصغيرة. طلبن منه أن يمسسهن ثانية. لا معنى لأن يمسسهن مرَّةً واحدة فقط. لا ذكور آخرين هناك، ولا ذكور آخرين هناك»، قالها الشيخ وابتسم متأكدًا من عدم فهمهم للمعنى.
«في تلك الليلة قرر التنازل عمَّا قرره من قبل. وقام بفعلها للمرَّةِ الثانية. في تلك المرَّةِ فعلها مع كلِّ واحدة على حدة على دكته الصغيرة، خلع سرواله الفضفاض. وطلب منهن التحلق حوله في دائرة. كن مُغيبات، شبقات. خلعن ملابسهن أمامه؛ ليأخذ بيد أولهن ويفعلها أمامهن.
ظلَّ هكذا من الليل حتى عصر اليوم التالي. قام بمضاجعتهن جميعًا أمام بعضهن البعض. يقُلن بأنَّ ذكره لم يرتخ، ولم يفقد شهوته لثانية. تداولن الحكاياتِ السريَّة، والأغاني التي لا يعرفها سواهن متباهيات بفحولته المخالفة للمنطق. في تلك الليلة ملأ بطونهن جميعًا أيضًا. حبلن منه، وولدن أطفالًا أيضًا لهم أب واحد».
«ظلَّ الحال هكذا طويلًا. يضاجعهن، ليحبلن، ليلدن؛ حتى كبر الأولاد، وهرمتِ النِّساء. لم يعدن يتحملن فحولةَ ذكره. يُقال بأنَّ هناكَ بعضَ النسوةِ قد متنَ أسفل منه. ظلَّ الأمر هكذا. حتى كبر الجيل الأول من أولاده، وبلغتِ الفتياتُ مبلغ النِّساء، وخُرطن ليصبحن إناثًا ناضجات. حللن محلَّ النِّسوة الأوائل؛ ليفعل معهن نفس ما كان يفعله مع أمهاتهن. جمع الأولاد

الذين كبروا وقام بإرسالهم لمكان لا يعرفه غيره. ظلَّ الحيُّ مكانًا للنِّساء فقط؛ نساء وأطفال. كانت الفتياتُ تناديه: أبي. حتى وهو يضاجعهن. لم يُشبع شهوتهن أحد غيره».

«في زمن معين اختار أن يستقر بالجبل. لم يعدْ ينزل للناس، ولم يعدْ يراه أحد. وهذا هو السِّرُّ في عدم رؤيتكم له، بالتأكيد كلكم تتسائلون لماذا أحكي لكم كلَّ هذا الآن؟».

جاوبتْه همهمات متداخلة من الأطفال المذهولين أمامه، فظلَّ ينظر إليهم دون أن يطرف قليلًا؛ قبل أن يقول لهم: «لأنَّه قد حان موعدكم». لم يفهموا وظلُّوا ينظرون إليه وهم يهمهمون. هبَّ من مكانه بصعوبة، وقام بفرد قامته المحنيَّة وهو يقول لهم: «هيَّا بنا، ستأتون معي». كان يبتسم لهم ابتسامة واسعة.

«لا تخافوا. سنكمل حديثنا ونحن سائرون».

هبُّوا معه جميعًا. وقفوا يتطلعون للمكان حولهم. كان الصَّمتُ يغلِّف كلَّ شيءٍ. أمسك بكلوب الإضاءة الكبير، وبدأ السير. كان يتجه لمخرج القرية، يتبعونه في صمت وخوف. «لم يسألني أحدكم أين هو؟ وأين يعيش؟». كأنما ابتلعوا ألسنتهم، ظلُّوا يهمهمون دون معنى.

«هو إرثٌ تركه لنا جميعًا، وعلينا إكماله».

كان الجوُّ يزداد برودةً وظلمة. والطريق يتحول من صخرٍ ممهَّدٍ، لصخر قاسٍ متناثر أمامهم، كانوا يتجهون ناحية الجبل، يرون خياله الأسود في الأفق، ويفكرون فيما سيحدث. يرتجفون بردًا وخوفًا، ورهبة ممَّا لا يدرونه.

«لقد أوكل إليَّ تكملة مهمته، اختصَّني دون غيري بالكشف عن نفسه. لو كنتم محظوظون سنراه هناك». دبَّ الحماس في عروقهم الفتيَّة، وجعلهم

هذا يكملون سيرهم سريعًا بين الصخور دون جهد. هو أيضًا كان يسير دون تعب. من يراه جالسًا في جلسته اليومية؛ يظنُّ أنَّه لا يستطيع المشي كلَّ هذا دون تعب. كان يبدو جانبهم على ضوء اللهب الخافت فتيًّا. ازداد طولًا وقوَّة. حتى صوته بدا جهوريًّا دون بحَّة، أو حشرجة اعتادوها منه.

يقتربون من الجبل. فيزداد الهواء عُنفًا وبرودة. يقتربون من بعضهم البعض، يسيرون في مجموعات متقاربة ككتلة واحدة. يحثُّهم هو على الصَّبر والتحمل: «اقتربنا كثيرًا، لا يتبقى سوى القليل».

كان الطريقُ أسفل الجبل يبدو مُمهَّدًا لأعلى. مدق صغير قام أحدهم بصنعه للصعود. قبل المنتصف وجدوا كهفًا غائرًا مختفيًا خلف صخرة كبيرة. اقترب هو من المدخل قبلهم. كانتْ ثمَّة إضاءة تبدو من الداخل، يمسك بالكلوب في يده، ويرفعه لأعلى. يقتربون كلهم منه وهم ينهجون ويرتجفون.

كان طوله قد ازداد. كلهم لاحظوا هذا دون أن يعلِّقوا. طال شعره، وتحوَّل لونه للون الليل حولهم. اللهب يتراقص، فتتراقص ملامحه في عيونهم. يبدو أصغر مما كان، لولا خوفهم من المكان لفروا منه جريًا، يشير لهم أن يقتربوا منه، يقف أمام مدخل الكهف. يتجمعون أمامه في دائرة متقاربة.

ينظر حوله ويتطلع لأعلى ليرى القمر المضيء المُعلق في كبد السماء فوقهم. يهمس لهم بصوتٍ نقي لم يسمعوه من قبل: «جاء دوركم لتكملوا ما بدأ منذ سنين طويلة، تمَّ اختياركم لتكونوا أول مجموعة تفعل ما ستفعل. الليلة قمريَّة رائقة تشبه بالضبط أول ليلة بدأ فيها الأمر».

كان صوت تنفسهم يعلو. خائفين؛ بعضهم بلل سرواله، وبعضهم كان

ينشـج دون صوت. ظلَّ ينظر لهم قليلًا قبل أنْ يقول: «لتنظروا لي جميعًا. لتتطلعوا في عيني قليلًا».

نظروا جميعًا له دون صوت، شعروا أن عينيه تتسع وتزداد غرقًا. نسوا خوفهم، وبكاءهم. وظلُّوا جميعًا يقبعون في عينه المتسعة.

«عندما ننتهي سنهبط لنذهب للقرية من جديد، سندخلها صامتين، لن يحكي أحد عما حدث، ولا عما سمعتموه، أو شاهدتموه. أنتم رجالي هناك. ستلبثون قليلًا في القرية حتى نرى ثمارکم قد أينعتْ، ثم سأرسلكم كلّ إلى قرية لتكملوا ما بدأ منذ سنين. حان الوقت لنبدأ عهدًا جديدًا».

تراجع خطوةً للوراء وأشـار لهم ليتبعـوه، فلمحوا كهوفًا أخرى تمتدُّ بطول الجبل، كلها مخفية خلف صخور ضخمة تصدر منها إضاءة خافتة، وأصوات متآكلة. دخل الكهف فتبعوه دون تفكير للداخل.

كان الكهف كبيرًا. مضاءًا بالعديد من مصابيح الجاز والشعلات المُعلَّقة على الحوائط. حينما دخلوا وجدوا أمهاتهم بالداخل. يجلسـن على وسائد فرشتْ لهن على الأرض. ما أن رأى كل واحد منهم أمَّه حتى جرى إليها وارتمى في حضنها.

اتجه هو ليقفَ في منتصف الكهف، طويلًا، له نظرة سوداء لا تطرف. كانت الأمهات مُستلبات، يربتن ببطء على أولادهن، قبل أنْ تسحب كلُّ واحدة منهن ابنها بجوارها على الفراش الأرضي. وببطء وآلية بدأتْ كلُّ واحدةٍ في خلع ملابس ابنها بالكامل؛ قبل أن تضمَّه إليها جيدًا، وهي ترفع رداءها لتحيط به بين فخذيها.

مسيح باب زويلة

يواصلون سبابه، وقذفه بالطين وبقطع الخضار والفاكهة الفاسدة. يربطونه في عمود حديدي مخصص لربط الحمير والبغال. الماء الراكد الآسن أسفله يتناثر مع حركته المجنونة، ومحاولته اليائسة للهرب. يتعثر في ردائه الطويل، فيهوى على ركبتيه وسط الطين، يسمع ضحكات الناس من حوله تزداد، فيزداد هياجُه وجنونه. الحبل الشائك السميك يدمي معصميه، لكنَّه يواصل الشدَّ دون هوادة. يتلفتُ حوله، فيبتعد عن محيطه الأطفال المتسخون المتناثرون حوله. يزوم وهو يشدُّ الحبل بجنون، يراهم يقتربون منه بأزيائهم الرسميَّة المتأنِّقة. أحدهم يقرأ من مخطوط في يده:

«بأوامر السلطان المُعرف دون اسم، سيتمُّ إعدامُ الشقيِّ الخارج على القانون مخفي الاسم، شنقًا على باب زويلة».

يتنبه أنَّهم لم يذكروا اسمه تأكيدًا على التجاهل والعقاب. نكرة؛ سيذهب دون أن يردد الناس اسمه، أو يتداولوا حكايته. مجرد شقي آخر سيمحى هكذا. كان عقابًا أشدَّ من الشنق. لا يناله سوى المغضوب عليهم بشَّدةٍ من السلطان؛ أنْ يتمَّ محوُ اسْمه هكذا، أن يتحول لمخفي الاسم وسط الناس. ويُجَّرم مجرد ذكر اسمه.

يرى مندوب السلطان وهو يناول النَّاس من سُرَّة نقوده القطيفة الحمراء الفاخرة ريالاتٍ فضَّيةً لامعة، كعطيَّةٍ من عطايا السلطان المُبجل. يُهلل النَّاسُ ويتحمسون لسبابه ومضايقته. يتجمَّعون أكثر ويزدادون بذاءةً وشراسة. يلمحُ صديقه وهو يحاول الاختباء عنه وراء الناس، ينظر له بنظرة دامية قبل أن ترتطم بوجهِه كتلةٌ من الطين العطن.

ينفض رأسه وشعره الطويل المتناثر أمام وجهه، ويواصل التلفتَ حوله وهو يصرخ: «سأصلب كما صُلب المَسيح.. سأذهب وأنا مُعلق فوق رؤوسكم عاليًا وأنتم تحت أقدامي». الناس تواصل الضحك على كلماته وهذيانه. يسمع من بعيد وسط دقات الطبول العالية: «ستشنق يا حمار، لا صلب هُنا».

يواصل هو كأنَّما لم يسمع: «سأنال خلاصي وحدي، سيكون موتي لعنة عليكم إلى يوم الدين».

يبدأون في إبعاد الناس للخلف، ويتأكدون من ثبات الحبل في منتصف السقف فوقه. «سأنال خلاصي وحدي يا أولاد القحاب.. لن أذكركم هناك، ولن أشفع لأحد منكم».

***

ظـلَّ مُعلقًا على بـاب زويلة لثلاثة أيام. متدليًـا، أحيانًا يتأرجح موليًا وجهه المُنكفئ لجميع الاتجاهات.

في اليوم الأول، كان الناس يقفون تحت قدميه يتأملونه، محاولين رؤية وجهه المغطَّى بشعره المتناثر. يتجمع الأطفال أسفله مقلدين إياه، مُرددين ما كان يصرخ به قبل الشنق.

نسـوا سريعًا ما فعله من أجلهم. وقوفه في وجه السـلطان، ورفضه، وكلامه الذي تناقله البصاصون حتى باب القصر. تتأمله النسوة الذاهبات للسوق باعتيادية ولا مبالاة، ويتأمله الرجال في ذهابهم وإيابهم غير شاعرين بأيِّ شيء تجاهه. تبخر كلُّ ما فعله، وأصبح مجرد شـخص لا يجرأون على ذكر اسمه، مُعلقًا كما عُلق مكانه الكثير قبله.

لمحه أحدهم يهتزُّ فصرخ في الناس بأنه حيّ، انتفضوا واقتربوا لرؤيته. كان يتأرجـح مكانه. ظلُّوا يتطلعون له طويلًا دون أن يروا شـيئًا. اتهموا الرجل بالخبال وابتعدوا. في الليل ومع هطول الظلام تنعكس عليه أضواء خافتة قادمة مـن الطريق القريب. يواصل التأرجـح متحركًا بين الضوء الساقط والظلام المتسرب. مرَّ اليوم ولم يفتقده أحد. وسارتْ الحياة أسفله كما كانتْ تسير عبره.

اليوم الثاني، فقد بعض الاهتمام. لم يأت إليه الناس جماعات يتفرجون عليه مثل اليوم السـابق، لم يعـد يحكي الناس في تجمعاتهم عمَّا كان يصرخ به، وما كان يفعله قبل الشنق. اسمه الذي كانوا يهمسون به وهم يتلفتون حولهم، لم يعـودوا يذكرونه. واللصُّ الـذي كان يتطلع لأخذ الحذاء من

قدمه انشغل بأشياء أخرى. حتى تأرجحه قلَّ، وجمد مكانه كأنَّما قد اعتاد الشنق. نُسي سريعًا دون سبب لذلك.

في اليوم الثالث لم يجدوه. استيقظوا في الصباح هكذا فلم يجدوه. بكلِّ بساطةٍ كان الحبل المُعلَّق به يتدلَّى وحده فارغًا. تنبه الناس، أشاروا لبعضهم البعض. وتطلعوا حولهم بتعجب. خافوا من ذكر اسمه.

«لقد اختفى مخفي الاسم».

«ربَّما أنزلوه ليلًا، خافوا أن يُفتن به النَّاس. كان يتحركُ مع الليل، كان حيًّا لم يمت».

«ربَّما نزل هو.. مادام حيًّا.. فربما نزل هو وحده».

ازداد اللغط، والصِّياح، حتى أتى مندوب السلطان. ظلَّ متوقفًا فوق صهوة جواده لم ينزل، وهو يتطلع للحبل المُدلى الفارغ. نظر للنَّاس حوله بنظرةٍ صارمة ميتة، فتراجع النَّاس للخلف. صنعوا حوله دائرة كبيرة يتوسطها الحصان الضخم مع الفراغ. لم يتكلم أو يعلِّق؛ فقط يتطلع للحبل العالي الخالي. أشار لحارسين أن يظلَّا هنا، وانصرف. ظلَّ النَّاس متجمعين قليلًا، ثم أخذوا في الانصراف.

كان الجوُّ باردًا، لم تشرق فيه الشمس. مُلبدًا بغيومٍ داكنةٍ، وتلوح في الأفق رائحة مطر سرعان ما هطل؛ ليجري الناس للاختباء، ويتجه الحارسان بسرعة للوقوف أسفل مدخل البوابة الضخمة تحت الحبل الفارغ المُدلى مباشرة.

***

في اليوم التالي بدأ الأمر.

لم يربط الناس بين ما حدث وبين الاختفاء الغامض إلا متأخرًا. رفض بعضهم ذلك التفسير قليلًا، ثم ما لبثوا أن هزُّوا رؤوسهم إذعانًا للأمر. تلبستهم الحيرة وعدم الفهم، وتكلَّموا طويلًا في الموضوع؛ مرارًا وتكرارًا يرددون نفس الحكاية دون كلل. خفَّت الحركة بالسوق. وتجمع الرجال على نواصي الحارات الصغيرة. وبقيت النِّساءُ بالبيوت مُغلقات الأبواب على أطفالهن بالداخل.

كانتْ رؤيتُهم لحارسَي مندوب السلطان مُعلقين على حبلين مكان مخفي الاسم مخيفة، ومُرعبة. كانتْ وجوهُهم ممسوخة، مرعوبة. تلوحُ عليها صرخةٌ مكتومةٌ لم يشاهدوا مثلها من قبلُ.

فكَّروا أولَ ما فكروا في ردِّ فعلِ السُّلطان، ومندوبه الجبَّار. فكَّروا في انتقامهم لما حدث، فكَّروا في تفسيرٍ لما حدث فلم يجدوا.

جاء المندوب مُدججًا بدزينتين من الجنود المسلحين. انتشروا أمام البوابة الضخمة، وفي الحارات. أنزلوا الرجلين ووضعوهما على صهوتَيْ حصانين، وهتف المندوب بصوتٍ مُخيف: «كلُّ من شارك، أو توَّرطَ فيما حدث هنا، سيُصلى منَ العذاب ما لن يطيقه. كلُّ من شاهد، أو يعرف ما حدث ليتقدم الآن ليتكلم».

سادَ صمتٌ لم يقطعْه سوى صهيل الأحصنةِ المُنتشرة. أدار وجهه الصَّارم في الوجوه المُختبئة حوله، ولم يكرر ما قاله. ظلَّ ينظر لهم بنظرات ناريَّةٍ.

قبل أن يدير صهوةَ حصانِه ويرحل دون أن يتركَ أحدًا خلفه للحراسة، أو التحقيق.

***

كان المعتادُ في حالات الشَّنقِ على باب زويلة؛ أنْ تكون واحدةً وربَّما اثنتين. في حالات قليلة جدًّا كانت مجموعة. كان رجال السلطان يجهِّزون لها الحبال السميكة، ويقومون بتعليقها جيدًا داخل سقف البوابة من الداخل، وتظلُّ الأجساد تتأرجح متخبطةً في بعضها البعض.

وهذا ما وجده النَّاس في الصباحِ التالي. وجدوا ستة رجال معلقين في صفٍّ واحدٍ، متأرجحين متخبطين في بعضهم البعض. كانوا من الذين شهدوا على مخفي الاسم؛ معهم صديق عمره الذي اختبأ منه ولم يدافع عنه. وجوههم مكسوَّةٌ برعب لم يروه من قبل.

لا أحد يعرف كيف ولا متى تمَّ الأمر. على الدوام هناكَ من يكون مستيقظًا في السُّوق. وعسكري الدرب يمرُّ طوال الوقت من أمام البوابة المغلقة ليلًا. من أين أتتْ كلُّ تلك الحبال؟ وكيف اختفى هؤلاء ليلًا دون أن يشعر بهم أحد؟

كان الناس يهمهمون رعبًا بتساؤلات لا إجابة لها، يهمسون بأنَّه هرب من الشَّنق لينتقم من وشايتهم له. هو أخبرهم بأنَّ دمه سيكون لعنةً عليهم إلى يوم الدِّين؛ لم يصدقوه، وتركوا أولادهم يسبونه ويقذفونه بالطين، وقبضوا ريالات فضَّيةً ثمنًا لهذا.

هبط الليل سريعًا. ولم يأتِ حراسُ السلطان، أو مندوبه كما أخبروهم

على بوابة القصر؛ بأنهم سيرسلون لهم مندوبًا للتحقيق، ومعه حراس لحفظ الأمن وحماية الأرواح. ظلُّوا منتظرين، ثمَّ قرروا أنْ يكوِّنوا دورياتٍ للحماية الشعبية مكونةً من رجال الحي، يتناوبون السير في أرجاء الحارات لحماية البيوت من أيِّ اقتحام متوقع، وتركوا أمام باب زويلة –الذي قاموا بإغلاق بوابته الخشبية الضخمة– ستة رجال أشداء.

أشعلوا المشاعل، والفوانيس الكبيرة ونشروها بطول الحارات وأمام البيوت؛ إلا أنَّ الأمطار هَطَلَتْ من جديد، فأطفأت النيران والمصابيح المُعلقة، ودفعت الناس للاختباء في مداخل البيوت، وأسفل التعريشات.

في الصباح، ودون أن تتوقف الأمطار. كان الرجال الستة المُكلفون بحراسة باب زويلة، مُعلقين أسفل منه يتأرجحون، تتساقط المياه والطين من ملابسهم الموحولة، ووجوههم مدموغة برعب لا يوصف.

أسقط في أيدي الناس، تحججوا بالأمطار والبرد. وبأنَّه شبح لا قِبلَ لهم بمواجهته. يتحرك عبر الحوائط دون أن يروه.

عندما ذهبوا لقصر السلطان تحت المطر للاستنجاد به؛ وجدوه قد ضاعف الحراسة على الأبواب، وفوق الأسوار. منعوهم من الاقتراب، وأخبروهم بأنَّهم يحققون في الأمر، وسيوافونهم بأخبار تطمئنهم وتطمئن الرعيَّة. وأنَّ الأمر لا يعدو شقيًا آخر سيتمُّ القبض عليه سريعًا ويُشنق على رؤوس الأشهاد. طمأنوهم ونصحوهم بالبقاء داخل بيوتهم مُغلقين عليهم الأبواب جيدًا من الداخل.

«لا تخافوا من أيِّ شيء فالسُّلطان يسهر لحمايتكم من أيِّ خطر».

عندما عادَ الرجالُ من هناك –وكانوا قد ذهبوا كلّهم ولم يتركوا سوى العجائز والنساء والأطفال– سمعوا الصياح والبكاء عن بُعد. تسابقوا للوصول سريعًا وهم يلهثون. كان مُعلقا أسفل الباب ستُّ نساءٍ عاريات تمامًا، مشنوقات. تبدو الحياة كأنَّما فرَّتْ للتوِّ من أجسادهن الملفوفة. ونساء الحيِّ أسفل منهن يبكين بانهيارٍ وهن يلطمن وجوههن. أسرعوا بإنزالهن لستر أجسادهن العارية. تسلم كلُّ رجلٍ زوجتَه وهو يبكي صائحًا يرتجف، ورحل كلُّ واحدٍ لبيته حاملًا زوجته الملفوفة في ملاءة ملوَّثة. تشيعه صرخاتُ الأطفال، ونساء الحيِّ كله.

وعندما بدأ المطر في الهطول بالليل، لم يتحرك أحد من مكانه هذه المرة، فقط النساء عُدن للبيوت مع الأطفال، وتبقَّى الرجال كلُّهم بالطرقات. تركوا المياه تغمرهم تمامًا دون أن يتكلم أحد، أو ينطق بأيِّ كلمة. وقفةٌ صامتةٌ لا تقطعها سوى أصوات الأمطار الغزيرة من حولهم، الممتزجة برعد بعيد يدِّوي في السَّماء.

كلَّما دوَّى برقٌ أنار المكان لثوانٍ ثمَّ خبا، وخبا معه ضوءٌ منَ الأضواء المتسربة من نوافذ البيوت شبه المغلقة، حتى ساد ظلامٌ دامس، لم ينره حولهم سوى البرق لثلاث مرَّات. وفي كلِّ مرَّةٍ يكتشفون اختفاء أحد الواقفين بينهم. سادَتْ حالة من الذُّعرِ والتخبُّط والرعب والفوضى، جرى كلُّ الواقفين يتلمسون الجدران حولهم، محاولين الوصول لبيوتهم. تعثَّر من تعثَّر، وسقط من سقط، وصرخ من صرخ.

رعبٌ ممتزجٌ ببردٍ ومطر وعويل مخيف لرجال كانوا أشداء منذ أيام قليلة.

النساء بالبيوت سمعن الهرج بالخارج، ولم يفهمن ماذا يحدث. تكوَّرن في ركنٍ بعيدٍ محتضناتٍ أولادهن برعبٍ وفزع. كلَّما حاولن إشعال مصباحٍ أو فانوس، هبَّتْ ريحٌ قويَّةٌ لا مصدر لها وأطفأتِ النار. تكوَّرن في الظلام مستمعاتٍ لصرخات رجالِهِن بالخارج دون أن يقدرن على فعلِ شيءٍ سوى البكاء والدعاءِ والارتعاش.

مع أول أضواء النَّهار خرجَتْ أشجعهن لترى ما حدث. كانت الأمطار لاتزال تهطل. الطريق موحل، والنهار لا شيء سوى نور كابٍ بعيدٍ له مذاقٌ بارد. عندما فتحت الباب وخرجتْ لم تجد شيئًا؛ بالأدق لم تجد أحدًا. الكثير من النعال، والطواقي الصوفية الغاطسة في طين الطريق. أطلقتْ أولى صرخاتِها الشبيهة بصراخ حيوان يُذبح. تبعتْها باقي النسوة في الخروج، والنظر حولهن وفهم ما حدث، ثم اللطم والعويل الطويل المؤلم المُحمل برعب لم يعرفه بشر. وعلى البُعد من أنظارهن كانَتْ مئاتُ الحبال تتدلَّى من بُرجي البوابة المغلقة، وعلى السُّور المجاور، وأسفل مدخل باب زويلة.

كان الطريق الطويل الضيق قد امتلأ تمامًا بمياه الأمطار. غطست الأحجار البازلتية العريضة أسفل الماء، الذي ظلَّ يتصاعد لأعلى مع هطول المطر الذي لم ينقطع. تكوَّمت نسوةُ الحيِّ وعجائزه مع أطفالهن في دائرة بالسَّاحة الكبيرة أمام البوابة يَنُحنَ في رعب. عندما رأينه قادمًا من بعيد؛ نفس زيِّه الطويل المنسدل، وشعره الطويل الداكن الذي يغطي وجهه.

لم يتبينوا ملامحه جيدًا لكنهن عرفن أنَّه هو. كان يأتي ماشيًا فوق الماء

دون أن تغطس قدماه، أو تبتلَّ أطراف ثوبه، أو يترك أثرًا فوق الماء كأنَّه طائرٌ فوقه.

كان يمسكُ بيديه صرَّةً حمراء كبيرة من القطيفة الفخمة. اقترب حتى صارَ أمامهن تمامًا، رفع رأسه لأعلى لتظهر بعض ملامحه المنحوتة، فرد ذراعيه جانبه بمحاذاة كتفيه، وارتفع في الهواء تحت المطر لأعلى، حتى صار فوق رؤوسهن تمامًا. فتح الصرَّةَ ببطء وهو يتمتم بصوتٍ خافت بما لم يسمعن، فضَّها في كفِّه المفتوح فتناثرتِ الريالاتُ الفضيَّة اللامعة، ظلَّ يتطلع إليهن قليلًا، قبل أن يقومَ بنثر ما بكفِّه فوقهن وهو يواصل الصعود لأعلى.

المؤلف في سطور

مصطفى محمود زكي نصر

– من مواليد الإسكندرية، أغسطس 1980.
– حاصل على ليسانس الآداب/ قسم الفلسفة، جامعة الإسكندرية.

صدر له:
– مشهد من ليل القاهرة، مجموعة قصصية، دار العين 2011.
– تأكل الطير من رأسه، مجموعة قصصية، دار العين 2014، وحصلت على جائزة ساويرس الثَّقافية في عام 2015.

البريد الإلكتروني:

moustafazaki.alex@gmail.com